ملف 505

عندما يقودك شغفك لحتمية الوصول إلى نهاية اللعبة

رواية

اسم الكتاب: ملف 505

اسم المؤلف: شيرين رضا

التصنيف: رواية

الحجم: 14 - 20

عدد الصفحات: 204

سنة الإصدار: 2024

رقم الإيداع: 15760 / 2024

الترقيم الدولي: 9 - 660 - 998 - 977 – 978

تدقيق لغوي: د. هبة ماردين

مراجع أدبي: مي حسام أبو صير

تصميم غلاف: بـــلال محمـــد

تنسيق وإخراج: فريق ديوان العرب

الناشر

ديوان العرب للنشر والتوزيع

إميلات الدار

dewanalarabegypt@gmail.com

dewanelarab1978@gmail.com

ملف 505

عندما يقودك شغفك لحتمية الوصول إلى نهاية اللعبة

رواية

شيرين رضا

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف،
ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي،
أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه،
أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت،
إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

إهداء

قرأت ؟.. علمت ؟.. أدركت ؟..
ماذا تحب الآن أن تقول ؟.....

****

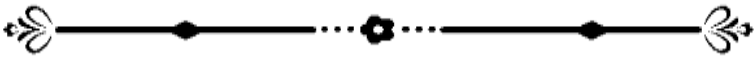

ليـــس كـــل مـــا نـــراه... حقـيـقـــة!

في عالم يتداخل فيه الواقع بالخيال، تبدأ رحلة غامضة مليئة بالأسرار، حيث يُوشك ملفٌ ممنوع من النشر على أن يُفتح، لتتباين حقائق قد تصدمك، وتتعلم أن ليـــس كـــل مـــا تـــــراه حقـيقة، لهذا سأترك الأمر بين يديك أيها القارئ، وعليك أن تكتشف متى ستتوقف رحلتك وتعلن عن السر.

الدليل الأول

"عندما يزأر الموت في وجه الحقيقة"

الثامن من سبتمبر

اعتلى السيد صلاح البنا المنصة، وسط قادة تتباين رتبهم وبعض الرموز الإعلامية تملأ المكان، الأنظار إليه كسهام مصوبة، تنتظر التصريح الذي سيزلزل الساحة، لحظات من الصمت المرهون بالتوتر تلاها انطلاق لأصوات غاضبة، مزقتها الضجة التي انتشرت كالعدوى تحرك الحرس كأنهم جنود في معركة غير معلنة، يحاولون إعادة النظام، تفاقم الموقف عندما حاول إعلامي الوصول إلى المنصة ليتصدى له أحد الحراس بحزم موجها له قبضة يده فاشتعلت المواجهة. تحرك صلاح في حركة خاطفة يحسم الموقف، رافعًا يده كإشارة للتوقف؛ فأطفأ نيران الفوضى التي كادت أن تنتهي بمذبحة.

هدأت الجموع تحت سطوة الأمن، وعاد صلاح يقف بشموخ فوق المنصة، لم تكد كلماته تجد سبيلها للخروج، حتى قطعت عليه الصراخات متسائلة: ما قولك في الأيادي الخفية التي تعبث بالعلاقة بين الشعب والسادة، وتنشر الفوضى في البلاد؟

اعتدل صلاح، وأخذ نفسًا عميقًا يستجمع قواه قبل مواجهة الرياح العاتية، ثم قال بصوت حازم: نحن إخوة على هذه الأرض، ولم أحدد بعد فئة بعينها، نحن هنا لحماية الوطن، أن بلادنا تحت هجوم من منظمات غير

مرئية تسعى لزعزعة أمنها واستقرارها، لكننا يقظون، وعلينا أن نكون أكثر وعيًا لمواجهتها، وقد أعلنا بالأمس عن تغييرات ستحدث قريبًا، واليوم، أقف أمامكم وكلي حزن لأكشف ما لا مفر منه، فجأة، دوى صوت ارتطام قوي إثر سقوطه على الأرض، عندما اخترقت رصاصة قلبه، ليسقط قتيلاً على الفور.

قبل الحادثة بيوم

أمام بوابة أحد المستشفيات، وقفت سيارة فارهة، ترجل منها رجل في منتصف ربيعه الثالث، بدا عريض المنكبين، ملامحه صلبة تبرز خطوطًا بنية تنبض بجدية شخصيته، اعتدل وهو يهندم ملابسه مُتطلعًا إلى السماء، ويلوِّك بين شفتيه عصا خشبية رفيعة (مسواك) نظر إلى لافتة تحمل اسم "مستشفى الدكتور عزمي التخصصي للأمراض النفسية والعصبية"، اقترب من الحارس، مقدمًا نفسه بطلب رؤية مدير المشفى، أفسح له الحارس المجال بالدخول، بينما كانت تتوارد إلى ذهنه أفكار انتفض لها عقله منذ أسابيع، حين عثر على ملف جريمة قتل.

كان المتهم فيها كاتب وصحفي مغمور تسرب الفضول إلى أفكاره؛ فبدأ يسعى نحو سُبل تساعده في إعادة فتح ملف تلك القضية.

أخذ يتمتم بصوت خافت: لنكتشف تلك الطبيبة الغامضة التي أرسلها القدر لي ماذا تخبئ، وما السبب الذي جعلها نزيلة هذا المكان حتى نهاية حياتها!

توقف في منتصف ردهة تتوسطها مكتب، حيث كانت تجلس خلفه ممرضة، قدم لها بطاقته، طالبًا منها إبلاغ الدكتور عزمي بضرورة مقابلته، انطلقت الفتاة نحو المكتب يتبعها في صمت، طرقت الباب بعملية وتقدمت إلى الداخل، لحظات حتى عادت قائلة : - دكتور عزمي ينتظرك.

تقدم المحقق بخطوات ثابتة، عينيه مثبتتين على الشخص الذي يجلس خلف المكتب، توقف للحظة ليقدم نفسه:

مساء الخير، سيد عزمي، أنا المحقق مصطفى، جئت إليك بأمر من وزير الداخلية للتحقيق في قضية مريضة لديكم.

بادله الرجل التحية، وأشار له بالجلوس، ثم بادر بالحديث قائلاً: كيف يمكنني مساعدتك؟

كان عزمي بدينًا، ملامحه تنبئ عن حياة مليئة بالضغوط والتوتر، عيناه تختبئان خلف نظارات سميكة تعكس لمعانًا غير مريح، مما يزيد من هيبته ويعكس حالة المكان القاتمة من حوله، نظر المحقق نظرة جادة قائلًا: جئتُ للنظر في قضية الدكتورة سارة.

ابتسم عزمي بشكل بدى ساخرًا ثم طرق بقلمه على سطح المكتب، معتدلًا في جلسته وقال: يبدو أن القضية عادت لتثير اهتمام وزارة الداخلية مرة أخرى.

صمت لوهلة، ثم أضاف: منذ قدومها وهي في فصام تام عن الواقع، وإلى الآن لم تستقر حالتها!

كانت ملامح عزمي المشوبة بالقلق تعكس انشغاله الذهني، وكأن الوزن الذي يحمله لا يقتصر على جسده فحسب، تنهد المحقق في هدوء قائلًا: إن أمر تلك المرأة أثار الكثير من التساؤلات، خاصة بعد الحادث الذي تعرضت له واختفاء المتهم الثاني، جريمتها تشبه الأسلوب نفسه، وهذا يفتح لنا أبوابًا جديدة، هناك خيطٌ ما زال خفيًا عنا، ولذا فقد أمر النائب العام بإعادة فتح ملف القضية.

ابتسم عزمي بسخرية قائلاً: اعذرني، لكن يبدو أن الداخلية ليست على دراية كاملة بحالتها، لا أعتقد أنها ستكون ذات فائدة لكم فالحادثة أثرت بشكل كبير على الجزء الأيمن من دماغها، مما تسبب في نزيف حاد وفشل العلاج في تحسين حالتها، ستجدها شاردة الذهن معظم الوقت، وقد تقضي أياماً دون النطق بكلمة واحدة.

شعر مصطفى بنبرة المراوغة في حديث عزمي، وكأنه يحاول أن يضع العراقيل أمام تحقيقه؛ فقام بفتح هاتفه ليبدأ بالاتصال، لكن عزمي قاطعه قائلاً:

ماذا تنوي أن تفعل أيها المحقق!

سأهاتف السيد وزير الداخلية وأطلعه على الوضع.

رمقه عزمي بنظرة مليئة بالتحدي، ثم بابتسامة مستفزة قال: لا حاجة لذلك كما قلت لك، حالة الدكتورة سارة معقدة، لكن لك مطلق الحرية في متابعتها.

ثم أمسك بهاتفه وأصدر تعليماته بإرسال الممرضة إلى مكتبه، شكره مصطفى على استجابته، وما أن انتهت المكالمة حتى سُمع طرق خفيف على الباب، دخلت ممرضة هزيلة الجسد، وحين نظر إليها عزمي بنظرة عابرة بدت كأنها لغة خاصة بينهما و قال: اصطحبي المحقق إلى جناح الدكتورة سارة.

أومأت برأسها دون أي كلمة وتحركت نحو الباب وخلفها مصطفى بعد أن صافحه بابتسامة متحفظة، وبينما كانت الممرضة تقوده نحو جناح الحالة، لاحظ سيطرة اللون الأصفر على الأسقف والأرضيات، في حين كانت الجدران مغطاة بلون رمادي باهت يبعث في النفس شعورًا بالكآبة والتشاؤم، تملكه تساؤل داخلي: كيف يمكن لمستشفى يعالج المرضى النفسيين أن يتركهم محاطين بألوان كهذه تزيد من اضطرابهم بدلاً من تهدئتهم؟

ظل يسير مستكشفاً المكان كأنه في متاهة، اصطدم بأحدى المرضى الذي لم يلتفت أو يهتم، أمسك المحقق بذراعه، واستوقفته ردة فعله الباردة، ولون بشرته التي تشبه جدران المشفى.

لوهلة شعر أنه ينظر إلى جثة تسير على قدمين وعندما حاول التحدث معه جاء ممرض أبعده عن طريقه.

عاد مصطفى ينظر إلى الممرضة مستفسراً: تبدو ملامحه مألوفة إليّ من يكون؟! ولماذا هو على تلك الحالة؟

نظرت له وبنبرة يشوبها القلق قالت:

لقد خرج للتو من جلسة علاج وعليه أن يستريح، يمكننا أن نستكمل طريقنا.

بادلها نظراتها القلقة، ثم عاد والتفت إلى المريض وشعورًا خفيًا يخبره أن هناك أمرًا غريبًا يتعلق بهذا الرجل.

بعد لحظات، توقفا أمام إحدى الغرف، لفت انتباهه الرسومات التي كانت تغطي الجدران، بدت له أشبه بخريطة غير مفهومة، استدار نحو الممرضة وبحيرة سأل: ما قصة هذه الرسومات؟ هل هي شعار المستشفى؟

فتحت الباب قائلة بهدوء: تفضل سيدي.

وانصرفت متجاهلة إياه، تاركة خلفها عاصفة من الأفكار تملأ عقله.

وقف ينظر أمامه، يستكشف الغرفة المريبة وقد تملكته رهبة غريبة، كل شيء حوله مريب، وكأن الجدران تحمل أسرارًا لا تبوح بها إلا لمن يملك الجرأة على اكتشافها، لم يكن هناك سوى صمت مخيف، صمت يبعث على التوتر، ويجعل أدق التفاصيل تنبض أمام عينيه.

فراشًا صغير وسط الغرفة بدا كأنه لوحة مهملة، لم تمسسه يد، إلى جانبه طاولة خشبية بالية، لا تتسق مع بقية الأثاث، مما زاد من كآبته، الألوان الرمادية، التفاصيل المتنافرة، كل شيء يوحي بشيء مفقود، صرخة مكبوتة في صدره، لا تملك الخروج، عيناه تجوبان المكان حتى توقفتا عند زاوية حيث تجلس فتاة بصمت مستندة على طاولة ضيقة بالكاد تناسب مقعدها، ناداها: دكتورة سارة.

رفعت رأسها ببطء وكأن اسمها يحييها من عالم النسيان، استدارت وكأن الزمن يثقل حركتها، ملامحها شاحبة، عيناها خاوية، الحزن يتدلى من كل تفصيلة على وجهها، تقدم مصطفى بخطى مترددة وهمس: دكتورة سارة.

ابتسمت ابتسامة غامضة، مد يده قائلًا: مصطفى الشاذلي... أنا هنا لأساعدك.

توقفت يده في الهواء دون استجابة، وظلت تنظر نحوه بصمت ثقيل حاول أن يواصل: كنت أود معرفة ما حدث في تلك الليلة، وأين الصحفي مروان؟

أخذت عيناها تجولان بينه وبين باب الغرفة، كأنها تخشى قدوم أحد، اقترب منها أكثر، صوته ينخفض ليواسي صمتها وأردف قائلًا: ظهرت أدلة

جديدة، واعتقدت أنني أستطيع مساعدتكِ، لماذا لم تتكلمي حتى الآن؟ هل تخشين أحدًا؟

ابتلعت ريقها، ثم همست بصوت بالكاد يُسمع: علينا أن نخشى الذين يسيرون تحت الأرض.

تلبست الحيرة مصطفى، عينيه معلقتان بها والأفكار تضرب رأسه كالمطرقة ثم قال بصوت خافت: يطلقون عليكِ منقبة الموتى... ربما لم يخطئوا.

استدارت إلى الجانب الآخر ثم توجهت نحو فراشها وجلست دون أن تعيره نظرة واحدة، تملك مصطفى شعور غريب؛ فالغرفة بدت وكأنها مصممة لتسكنها روح واحدة بلا رفقة، نقل المقعد الوحيد في الغرفة ليجلس قبالتها، محاولًا كسر الجمود بينهما بحديث عابر، لكن أسئلته ظلت عالقة بلا إجابة.

توقف مصطفى للحظات، ثم أعاد عليها السؤال؛ فتأملت وجهه للحظة وأطلقت نفسًا طويلًا وكأنها تحمل بين ضلوعها عبء زمن بأكمله، ثم نطقت أخيرًا: لقد أتيت متأخرًا!

حل الصمت بينهما مرة أخرى كضيف ثقيل، شعر بثقل الأجواء يطغى عليه، والوقت يمر دون أن يلمس أي تجاوب منها، بعد مرور ثلاثين دقيقة من الصمت المحبط، قرر مغادرة المكان، لكنه بالكاد استدار ليغادر حتى سمع صوتها الهادئ يناديه: انتظر.

التفت نحوها؛ فنطقت بنبرة غريبة، وكأنها تتحدث من عالم آخر: بعد أربعين ثانية. وقبل أن يدرك معناها، انطفأت الأنوار فجأة، وتحولت الغرفة إلى كهف مظلم، تصاعدت نبضاته وهو ينادي: دكتورة سارة!

انتفض جسده عندما أحس بيد تمسكه، وصوت هامس يقربه: شارع الزهراء، عمارة 9، الدور الأرضي، علبة القاطع الكهربائي رقم 7.

ابتعد عن سارة، متحسسًا ظلام الغرفة، وفي اللحظة التي مرت فيها الأربعون ثانية، فتح الباب ووقفت الممرضة أمامه وهي تحمل كشافًا صغيرًا، قائلة باعتذار: عذرًا، سيدي، هناك عطل في المحول، التيار الكهربائي انقطع عن المنطقة بأكملها.

نظره كان مثبتًا على سارة التي عادت لتجلس بهدوء على فراشها، عيناها غائبتان عن الواقع، تحدقان في النافذة وكأنها تسبح في عالم لا يراه أحد.

اقتربت الممرضة مجددًا منه: سأرافقك حتى بوابة المشفى.

شعر مصطفى بشيء غريب يسيطر على الأجواء، وكأن انقطاع الكهرباء حدثًا مفتعلًا، خرج مع الممرضة وهناك شيئًا يقوده إلى نهاية غير مفهومة، وعندما وصل إلى البوابة، استدار للحظة؛ فرأى الأضواء تعود، رفع عينيه نحو الطابق العلوي، ليلمح خيال شخص يراقبه من خلف إحدى النوافذ، تملكه شعور بالرهبة، لكن لم يكن أمامه سوى المغادرة...

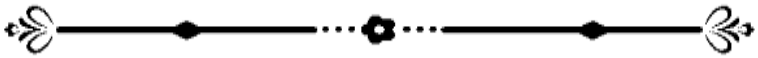

الدليل الثاني

"صنـدوق ســـري"

جلس مصطفى خلف مكتبه، تتطلع عيناه إلى كومة الأوراق المتناثرة أمامه، غارق في دوامة من الحيرة والأفكار المضطربة، مشاهد المستشفى المريبة ما زالت تحاصره، كيف اختفى الصحفي وأين؟ ما الذي دفع الدكتورة سارة إلى هذه الحالة المتدهورة؟ وهل هناك من يضع العراقيل أمام سير التحقيق؟

نهض من مقعده وبدأ يتحرك في المكتب يبحث عن مخرج من دوامة لا نهاية لها، همسًا لنفسه: ماذا عن العنوان الذي أعطتني إياه؟ ما الذي يمكن أن أكتشفه هناك؟

غرق في تيار من الهواجس المتشابكة، أيقظه منها صوت طرقات متعجلة على الباب، دخل مساعده ليخبره أن العميد كامل يريد رؤيته في الحال، تنفس مصطفى بعمق، ثم أومأ برأسه، مشيرًا للمساعد بالانصراف، التقط ملف القضية بيد ثابتة وتوجه بخطوات حازمة نحو مكتب العميد، ما إن ولج الغرفة حتى سمعه وهو يختتم مكالمته الهاتفية: "حسناً، سيد عزمي"

لم يلتفت مصطفى للاسم؛ بل تقدم بخطى ثابتة وألقى التحية، أشار له العميد بالجلوس، وبدأ حديثه بصوتٍ هادئ: تواصلت مع مدير المستشفى الذي تحتجز فيه المتهمة، وأخبرني أن مقابلتك لم تحقق أي نتيجة!

اعتدل مصطفى في جلسته، وهو يسرد تقريره عن تفاصيل اللقاء بينه وبين سارة، لكنه حرص على ألا يذكر ما حدث في الثوان الأخيرة، وقبل أن يستكمل كلامه، قاطعه كامل بنبرة صارمة:

- لقد منحتك الفرصة يا مصطفى وسمحت بإعادة فتح القضية، انظر إلى أين وصلت الآن، الدكتورة سارة ليست في حالة تسمح لها بالكشف عن أي معلومات حول جريمة معقدة كهذه، إذا كنت جادًا في حل القضية، ابحث عن مصدر آخر أو ....! توقف العميد لبرهة، وكأنه يبحث عن صياغة لخياره الأخير، ثم أكمل ببرود: يمكنك تقديم اعتذار، وسنغلق هذه القضية إلى الأبد.

تسللت مشاعر الإحباط إليه؛ الأمر يزداد تعقيدًا، كان واضحًا له أن هناك من يحاول دفن هذه القضية ووضع العراقيل في طريقه، أدرك أن محاولاته قد تبوء بالفشل، وأنه يوشك على دخول معركة خاسرة، نهض معتذرًا واستأذن بالانصراف دون التفوه بكلمة.

عاد إلى مكتبه محاولًا تفريغ غضبه بركلات عشوائية، يشتبك مع خصم وهمي وسط فوضى أفكاره، بدأت شكوكه تتأكد؛ فمنذ اللحظة الأولى التي

رأى فيها الدكتور عزمي، شعر بأنه يخفي شيئًا وحدسه لا يكذب، استنشق تلك الرائحة المميزة التي تفوح من المجرم حين يحاول الإفلات بالكذب والمراوغة، والآن تأكد من أنه يواجه خصمًا خفيًا يريد أن يقوده إلى متاهة لا خروج منها.

جلس خلف مكتبه مجددًا، أعاد فتح ملف اختفاء الصحفي، مقتل الفتاة التي وجدوها في شقته، حادثة الدكتورة سارة، وسر وجودها في ذلك المشفى!

الوقت مرّ دون أن يشعر، غارقًا بين الأوراق كطالب يستعد لأصعب اختبار في حياته، فجأة، ظهرت ورقة جذبت انتباهه، جحظت عيناه

وهو يقرأ ما كُتب فيها "شارع الزهراء، عمارة 9، الدور الأرضي، علبة القاطع رقم 7.

....

داخل المشفى، جلس السيد عزمي ينفث دخان سيجاره الفاخر وصورة المحقق وتلك القضية التي ظن أنها قد طُويت تتردد في ذهنه طرقت الممرضة الباب، فأذن لها بالدخول، وقفت أمامه بتوتر، وهي تستعرض المهام التي أنجزتها بسرعة.

دار بكرسيه فجأة، ووجه نظراته الغاضبة نحوها، ثم صفع بيده على سطح المكتب بقوة، ليُحدث صوتًا حادًا، نظر إليها بعينين مليئتين بالغضب، ثم تحدث بحدة عن ما حدث في ممر المشفى، وكيف سمحت بوقوع حادثة

الاصطدام بين الحالة والمحقق، حاولت الممرضة السيطرة على ارتعاش جسدها، وهي تبتلع ريقها بصعوبة اقترب منها بخطوات ثابتة، ولم يرفع صوته أكثر، لكنه قال بنبرة منخفضة وحادة تحذيرًا أخيرًا، نظراته كانت كافية لتبث في قلبها الرعب، تراجعت ببطء للخلف، وعيناها لا تفارقان الأرض.

تركها وأدار ظهره، متوجهًا نحو النافذة حيث وقف لبرهة، ثم أشار لها بالمغادرة دون أن ينطق بكلمة إضافية.

ما زال مصطفى جالسًا يحملق في كومة الأوراق المبعثرة أمامه، عيناه مثبّتتان على الدليل الجديد الذي سقط بين يديه، أو بالأحرى الذي كان أمامه دون أن يدرك أهميته، نهض فجأة وقد اجتاحته موجة من التوتر، ووضع يده على رأسه كمن فكَّ أعقد الأحاجي.

حدث نفسه قائلًا: كيف لم ألحظ ذلك العنوان من قبل؟!

لكنه سرعان ما تساءل: هل هناك علاقة بين الحادثتين؟

قرأ العنوان مجددًا بصوتٍ مسموع، وعاد يخاطب نفسه: ما الذي يمكن أن أجده هناك ولم تتمكن الشرطة من الوصول إليه؟

نظر مرة أخرى إلى بيانات العنوان، فظهر أمامه اسم صاحب المنزل إنه الصحفي! كيف غاب هذا الاسم عن ذهنه؟

عادت محركات عقله للعمل بأقصى سرعة، هناك لغز كبير يربط بين هذا الثنائي، جلس على مقعده محاولًا تنظيم أفكاره التي تتقافز في رأسه مثل قطع شطرنج على رقعة معقدة، لكنه لم يكد يستجمع تركيزه حتى قطع حبل أفكاره صوت الهاتف الذي ارتفع فجأة، نظر إلى الشاشة، لم يكن هناك رقم ظاهر، تمتم بتوتر رقم خاص؟ ثم أجاب بحذر.

على الجانب الآخر، انطلق صوت أنثوي غامض:

"ما تبحث عنه... قريبًا ستجده"

وقف يصرخ في فراغ المكالمة: من أنتِ! عم تتحدثين؟ لكن الصوت اختفى، كما جاء، تاركًا خلفه المزيد من الأسئلة.

أخذ يضرب المكتب بقبضته، مشاعر الغضب والإحباط تتلاعب به

قام بجمع أوراقه وأغراضه، وقد تعاظم بداخله الإحساس بأن هذا الاتصال زاد من تمسكه بمعرفة الحقيقة، الآن لم يعد الأمر مجرد لغز؛ بل بات مسألة شخصية

....

وسط الصخور والرمال، وقف عزمي بجوار سيارته في منطقة الهرم، وقد انغمست قدماه في الأرض القاسية، عينيه مشدودتان نحو سيارة تقترب منه، تومض مصابيحها بقسوة في عينيه، توقفت السيارة أمامه ببطء،

وترجل منها رجل قصير القامة، جسده متقوس، ركبتاه تحملان اعوجاجًا يزيد من انحنائه، يرتدي بزة سوداء قديمة، وفي يده عصا حديدية يتكئ عليها، خطى ببطء نحو عزمي الذي لم يلبث أن انحنى أمامه بانكسار، وقف الرجل قريبًا منه

استند على عصاه المعدنية، وصوته خرج أجشًا، كأنه نبع من أعماق الأرض:

لقد أخطأت يا عزمي... لم يكن عليك السماح لهذا المحقق بالتجول في أروقة المشفى، كيف غفلت عن هذا التصرف الأحمق!

تحرك نحوه، لكن الرجل رفع يده مانعًا إياه من التقدم، فتوقف متحدثا:

"الأمر لم يكن مخططًا، أنت تعلم أنه ابن....."

لم يستكمل عزمي جملته، إذ ضرب الرجل عصاه على الأرض بقوة محدثًا صوتًا كالرعد في الفراغ الذي يحيط بهما.

أرتفع صوته بنبرة متسلطة قائلًا:- لا فرصة ثانية، الخطأ هنا لا يُغتفر، وتعلم ما يعنيه هذا"

لمعت عينا عزمي تحت الضوء الخافت، وبسخرية مبطنة قال:

كان يمكنك معاقبة المذنب منذ خمسة وعشرين عامًا، لكنك كنت بحاجة إليه... وهذا هو سبب وجودنا هنا الآن.

تجاهل الرجل تعليقه، وأضاف ببرود:

ليس هذا الوقت للماضي.

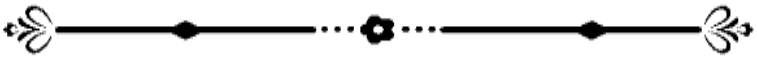

لكنه واصل وقد أصبح أكثر جرأة: هناك أمر آخر حدث أثناء زيارة المحقق... الكاميرات التقطت مشهدًا غريبًا، الحالة اقتربت منه وهمست في أذنه، لكننا لم نتمكن من سماع ما قالته.

الملامح الباردة للرجل لم تتغير، ثم قال بنبرة حادة: الملف فُتح من جديد... أخبر رجالك أن يستعدوا.

استدار الرجل، وأخذ يبتعد ببطء، لتكشف أضواء السيارة ملامحه تحت الضوء الخافت، وجهه شاحب، عيناه كبيرتان وبارزتان، أنفه أشبه بثقبين صغيرين في منتصف وجهه، ورأسه الأصلع بدا أكبر من المعتاد، مرعبًا بشكل غير طبيعي، واختفى وسط الظلام الذي ابتلعه تدريجيًا.

الدليل الثالث

"عودة إلى الماضي"

تقبع الذكريات خلف صفحات بيضاء، تتذكرها سارة وتدون بصمت تلك الليلة التي قلبت حياتها رأسًا على عقب كلعنة وسمت روحها؛ فتتكرر نفس الرؤية كي لا تنسى.

فتحت المفكرة، لم يكن بداخلها سوى بضع صفحات، نظرت إليها باشتياق تتمنى لو كانت الكلمات حية لتعانقها، تحمل لحظات من ماضيها، جمعت بينها وبين صديق طفولتها؛ فكان ارتباطهما كحلقة مترابطة، إذا سقطت منها واحدة انفرطت بقاياها، أغمضت عينيها وتركت الزمن يحملها إلى ذكريات تعيش في رفات عقلها، مختبئة بين الأرفف المهجورة.

قبل عام

وقفت على حافة الطريق، الشمس في أوج توهجها، تبعث بحرارتها التي تتسلل إلى الأنفاس، الزحام المروري يخنق الشوارع، الموج على شاطئ الإسكندرية يضرب الصخور بعنف؛ فيرسل رذاذه على المارة يروي عطشهم، ومن بين صراخ الأطفال وهدير السيارات، سمعت صوتا يناديها: هيا يا سارة، اعبري الطريق. التفتت نحو مصدر الصوت، لتجد شابًا في الثلاثينات،

شعره مجعد وبشرته قمحية تلمع تحت أشعة الشمس، رفع يده بإلحاح، مشيرًا لها أن تسرع.

فردت بصوت يكاد يخترق الضجيج: انتظر.

خطت خطواتها بحذر، تتفادى السيارات المندفعة، وهو يعبر الطريق نحوها ليساعدها، فجأة، دوى صوت آخر محذرًا: احترسي.

انعكست أشعة الشمس في عينيها؛ فأغمضتهما، شعرت بدفعة قوية تسقطها أرضًا، في لحظات معدودة، فقدت إحساسها بكل شيء حولها، لكنها عندما فتحت عينيها، وجدت نفسها ملقاة على الأرض، معصمها المصاب ينبض بالألم.

نظرت حولها وهي تئن، تبحث عن مروان وسط الفوضى؛ فوجدت الحشود ملتفة حول شخص، اقتربت أكثر، رأتهم يحملونه والدماء تنزف من رأسه، صرخت بذهول: مروان.

هرولت بجنون إلى المستشفى، تشق طريقها وسط الجموع، وعينيها يملأهما الخوف، وصلت إلى الطوارئ وهي تصرخ وتستجدي الممرضين لإنقاذه.

مرّت دقائق طويلة كأنها ساعات، تنتظر والدموع لا تفارق عينيها، بعد ساعة نُقل إلى غرفة أخرى، وظلت بجانبه، تبكي بحرقة، تراقب جسده الهزيل الممدد أمامها.

طرق الباب يخطف أنفاسها في كل مرة تسمع دقاته، يتسرب إليها شعور مرعب بأن الطبيب سيأتي ليخبرها أن النهاية اقتربت، دلفت الممرضة إلى الغرفة ابتسمت سارة ابتسامة بدت بريئة رغم أن الخوف يسكن خلف ملامحها الهادئة، أدركت الممرضة قلقها؛ فتحدثت بصوت هادئ، مطمئن: لا تقلقي .. تلك الحوادث لا تترك آثارًا وخيمة وبعد ساعات قليلة سيستعيد وعيه.

كانت كلماتها أشبه بنسمة أحيت روحها من جديد، ابتسمت بامتنان رغم ثقل قلبها، أنهت الممرضة كتابة التقارير وخرجت تاركة سارة واقفة تراقب مروان، قلبها يعصره الخوف عليها، ساعات طويلة مرّت وهي تنتظر أن يفيق، حتى اخترق سمعها أنين صوته وهو يهمس باسمها، هرعت إليه كالأم التي تنتظر عودة ابنها بعد غياب طويل، أمسك يديها بإحكام، تألم وهو يحاول أن يبتسم، ثم سألها برقة: "كيف حالك"

تستطع منع دموعها، ضربته بخفة على صدره وهي تبتسم من بين الدموع؛ فابتسم هو بدوره قائلاً بمزاح: لم يحن موعد موتي بعد.

مر يومان حتى بدأت حالته تستقر، وفي اليوم الثالث، تركته سارة لتستكمل بعض الإجراءات، عندما عادت وجدته يحاول تجهيز نفسه للمغادرة، اقتربت قائلة بدهشة: إلى أين؟ الطبيب أخبرني أنك ستخرج غدًا، وهناك أمور علينا أن نتحدث عنها.

أخرجت من حقيبتها ورقة، وما أن وقعت عيناه عليها حتى أدرك أنها الرسالة التي أخفاها عنها، وقد وجدتها بين أغراضه، تنهد بعمق وأكمل توضيب حقيبته بصمت ظلت صامتة تنتظر تفسيرًا، اقترب منها وضع يده على كتفيها وقال:

"عندما نعود سأخبرك بكل شيء، لكن الآن علينا الرحيل، ولا تبتعدي عني حتى نصل"

شعرت أن هناك أمرًا غامضًا يحيط بمروان، فقد لاحظت التغيرات التي طرأت عليه مؤخرًا، ورغم فضولها الجارف، فضلت عدم التحدث فهي تعرف جيدًا طباعه عندما يتعلق الأمر بالعمل.

عادت من شرودها، والأوراق ما زالت بين يديها، تعتصرها بقوة كمن يحاول أن يخنق الذكريات، ابتلعت ريقها بصعوبة، محاولة دفن الحقيقة مجددًا، خوفًا من أن ينبش أحد في هذا المكان سر ما حدث.

من أمام العقار رقم 9، وقف مصطفى متسمرًا، يتأمل المبنى كأنه يحدق في متهم ينتظر النطق بالحكم، تقدم بخطوات متثاقلة، يشعر بثقل ما سيكتشفه، لماذا طلبت منه سارة القدوم إلى هذا المكان؟ كان هذا السؤال يحوم حوله كظل لا ينفك عنه.

دلف إلى البناية وهو يتفحصها، بحث عن الحارس لكنه لم يجده، الهدوء يسود المكان والإضاءة خافتة، كأن البناية تحتضر.

انتظر لحظات ثم توجه نحو ممر الصناديق، فإذا بصوت حاد يوقفه، التفت ليجد رجلاً بزي حارس الأمن، تقدم منه الحارس بنبرة صارمة: من أنت؟ وإلى أين تذهب؟

وقف مصطفى قبالته بملامح جادة وأخرج بطاقته ليعرضها عليه:

مصطفى الشاذلي، محقق، جئت للتحقيق في جريمة القتل التي وقعت في شقة، بدت علامات الحيرة على وجه الحارس؛ فاقترب منه وهمس:

هل تقصد الشقة المسكونة سيدي.

رفع مصطفى حاجبه مستفسرًا، فواصل الحارس بنبرة خافتة: الجيران يسمعون صراخ المرأة التي قتلت هناك، لا أحد يجرؤ على الاقتراب منها منذ الحادث.

لم يلتفت مصطفى إلى تلك الخرافات، فقد كانت له مهمة أكبر من أن يستمع إلى الأقاويل، ركز على الممر والصناديق المتناثرة، سأله الحارس بتردد: هل وجدتم القاتل بعد كل هذا الوقت؟

رد مصطفى بنبرة صارمة: ليس من شأنك، أحضر لي كشافا.

خضع لأمره وهرع الحارس لجلب الكشاف، بينما استدار مصطفى نحو الممر، وأضاء هاتفه ليتفحص المكان، وصل إلى الصندوق وجده مغلق بقفل قديم مغطى بالأتربة، حاول فتحه لكنه فشل، استل سلاحه وضرب القفل

بمقبضه حتى كسره، فتح الصندوق ليجد داخله أسلاكًا متشابكة، ضحك ساخرًا:

ماذا أفعل هنا؟ يبدو أنني فقدت عقلي أنا الآخر!

ضرب الصندوق بيده، وحينها سمع صوت شيء يسقط في داخله، مد يده بحذر، شعر بشيء غريب، سحبه، وجد كيسا بلاستيكيا مغلفا وبداخله كتاب وأوراق قديمة، أدخله بين ثيابه بسرعة، وما إن سمع خطوات الحارس تقترب حتى أغلق الصندوق بقوة، فتطايرت الأتربة لتكشف عن اسم مكتوب على الصندوق "مروان صالح الشاذلي" التفت إلى الحارس، تخطاه بسرعة، وقال دون أن ينظر إليه:- شكرًا على المساعدة.

الدليل الرابع

"لغز جديد"

عاد مصطفى إلى منزله، يحمل بين يديه لغزًا جديدًا، يثقل كاهله بالتساؤلات والخوف مما قد يحدث إذا اكتشف رؤساؤه مخالفته للأوامر.

جلس بارتخاء، أخرج المفكرة من بين ملابسه، راح يحدق فيها والفضول يتسرب إلى عقله، قطع صوت الهاتف سكون اللحظة فانتفض من مكانه وألقى بالمفكرة بعيدًا، نظر إلى الشاشة فوجد رقم مساعد وزير الداخلية، وقف سريعًا، كأنه في مواجهة مباشرة وأجاب بنبرة جادة، فجاءه صوت المساعد صارمًا، يخبره بقرار نقله إلى مدينة أخرى لتولي قضية جديدة، صمت وقد ملأته مشاعر العجز، حاول أن يبرر أو يرفض لكن نبرة الآخر الحازمة أوقفت الكلمات في حلقه استكمل المساعد حديثه قائلاً: "رئيسك أخبرني عن القضية التي كنت تحقق فيها، الحالة مصابة بانفصام واعترافاتها مشكوك فيها حتى الضلع الأساسي في القضية اختفى منذ عام، وعليه تم إغلاقها، فانتبه لعملك ولا تعبث بأمور لا تجدي نفعًا".

انتهت المكالمة، أغلق الهاتف بغضب، أصبح متيقنًا أن هناك مؤامرة خلف تلك القضية وأن الأمر أكبر بكثير من مجرد حادث، جلس مرة أخرى، التقط المفكرة بين يديه، تنهد طويلًا وهو يتمتم بقلق: أتمنى أن أجد الحل بين صفحاتك، وإلا سينتهي بي الأمر مثل تلك المعتوهة.

غرفة معتمة، تتوسطها طاولة مكتب ضيقة، يجلس خلفها رجل بدين، ينفث دخان سيجارته بغيظ متصاعد، يرن الهاتف؛ فيقبض عليه بحدة وأجاب بصوت جاف: أريد صاحبة الرسالة في أسرع وقت لا مجال للتكاسل، هذا ليس الخطأ الأول ولن نسمح بتكرار ما حدث قبل خمسة وعشرين عامًا.

رد الطرف الآخر بصوت متهدج: "الأمر كان سرًا، لم نعلم به إلا عندما أخبرنا عميلنا من السفارة الألمانية أن هناك فتاة تدعي أن والدتها تحمل الجنسية الألمانية وتطالب باللجوء وتزعم أن والدتها اختُطفت قبل ولادتها وتم تهريبها سرًا."

صمت للحظة ثم اشتعل غضب الطرف الأول مجددًا: لا أريد سماع المزيد من الأعذار، أريد تلك الفتاة أمامي، قد تكون الهدف الذي نبحث عنه، ويجب أن نتحقق قبل أن يصل إليها أحد.

أغلق المكالمة دون انتظار رد، واستند بظهره إلى الكرسي، ابتسامة خبيثة ترتسم على شفتيه مرددا: قريبًا سنحصل عليكِ.

....

في مطبخه المصمم على الطراز الإنجليزي، وقف مصطفى يحضر فنجانًا من القهوة، كان يستعد لمغامرة جديدة، لا يعرف مداها، دلف إلى غرفة المكتب التي بدت كأنها مغارة من الكتب القديمة والمجلدات، الإضاءة الخافتة تضفي على المكان عراقة قديمة الجدران تزينها لوحات أثرية، من بينها صورة

لوالده أثناء تكريمه في السفارة الإيرانية عام 1988م، حيث كان واحدًا من النشطاء السياسيين البارزين.

جلس خلف الطاولة، وضع المفكرة أمامه، فتحها وبدأ يرتشف من صفحاتها الأولى، لاحظ قطرات دم متناثرة على الأوراق الصفراء أثارت حيرته، بدا كأن الكاتب كان ينزف أثناء الكتابة، نظر إلى نهاية الصفحة، فوجد اسم "سارة مختار"، تنفس بعمق قائلًا: لنرى ماذا تخبئين لي ولماذا جعلتني أعثر على هذه المفكرة، تراجع بجسده إلى الخلف، ثم بدأ القراءة.

قبل اختفاء مروان

الأمور تزداد تعقيدًا كل يوم، مروان أصبح يتجاهلني وكأننا غرباء، فمنذ عودتنا من الإسكندرية وهو يعاملني بخشونة كلما حاولت معرفة ما يخفيه، لم أعد أفهمه، لكنه أبكاني كثيرًا في الفترة الأخيرة، لم يعد يجيب على مكالماتي، ولم يعد يتحدث معي، ورغم غضبي منه أخشى عليه من الغرق في هذا العمل.

حتى جاء يوم فوجئت به يطرق باب شقتي، وقفت أمامه متصلبة كان شاحب الوجه، نظراته تتحدث بلا كلمات، لم ينطق سوى بكلمة واحدة: "أنا متعب يا سارة" كانت تلك الكلمات كافية لتحطيم غضبي منه، ارتمى بين أحضاني، شاركني ثقله، جلسنا معًا في غرفة المكتب ولم أجرؤ على سؤاله، لكنه فهم ما يدور في ذهني، ابتسم وقال: "سأخبرك بكل شيء"

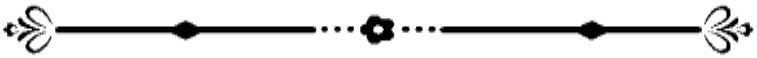

كلماته القصيرة خلقت طمأنينة داخلي رغم أنني أعلم أنه لن يبوح بكل شيء، كل ما أردته حينها هو بقاؤه بجانبي.
تركتُه وذهبت لأحضّر له قهوته وعندما عدت، وجدت جهاز الكمبيوتر الخاص بي مفتوحًا، ومروان اختفى، حاولت الاتصال به، لكن هاتفه ظل مغلقًا ومنذ ذلك الحين، لم أره مرة أخرى.

توقف مصطفى عن القراءة، فقد كانت الصفحة ناقصة وممزقة حاول البحث عن البقية، لكنه لم يجد شيئًا، نفث دخان سيجارته بغضب، حتى اصطدم ساعده بفنجان القهوة؛ فسقط على المذكرات، هرع لإنقاذ الأوراق وقذف بها بعيدًا قبل أن تتضرر وبينما كان ينفضها، سقطت ورقة صغيرة من بين الصفحات، انحنى لالتقاطها؛ فوجد أنها الصفحة المفقودة، ابتسم بسخرية وقال: عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم، وكما قالت جدتي دلق القهوة خير!

الدليل الخامس

"البـــدايـــــة"

الثلاثاء من شهر يوليو لعام ألفين وخمسة

تقدمت امرأة مسنة في عقدها السابع بخطوات واهنة نحو قسم شرطة الجيزة، تتكئ على عصاها تستند بها على بقايا العمر المنهك.

تنظر متوجسة نحو كل زاوية، كأن المكان يترصد حركتها، توقفت أمام باب يحمل لافتة "المحقق مصطفى الشاذلي"، أخذت نفسًا عميقًا تحاول استجماع قوتها، إلا أن تمايل جسدها أنذر بانهيار وشيك، سارع أحد الحراس لإمساكها قائلاً: هل أنت بخير، سيدتي؟

تحدثت عيناها بما يعجز لسانها عن النطق به، ثم سألت بصوت متحشرج عن المحقق مصطفى، جاء الرد صادمًا عندما قال: لقد تم نقله.

ارتجف قلبها للحظة، وعادت تسأله بيأس: "هل لديك رقمه؟"

لكن جوابه كان أشد قسوة إذ نفى معرفته به، تراجعت ببطء وقد أكفهرت ملامحها، وحين همت بالرحيل، ناداها الحارس محاولًا مساعدتها وقال: "إذا أردتِ تقديم شكوى، المقدم علاء في مكتبه"

لم تستجب لقوله، كأنها فقدت قدرتها على الإصغاء، تركته ورحلت بخطوات مثقلة بالهزيمة، وبينما كانت تستقل سيارة أجرة رن هاتفها فظهرت على الشاشة اسم ابنتها.

أجابت بنبرة متهالكة: لم أجده يا هدى، أوصيكِ إن حدث لي شيء، افعلي ما طلبته منك"

ما أن أغلقت الهاتف حتى شعرت بيد ثقيلة توضع على كتفها، التفتت ببطء، لتجد شابًا يبتسم ابتسامة جافة قائلاً: إلى أين تذهبين يا زوجتي العزيزة؟"

تجمدت ملامحها، واحتبست أنفاسها من فرط الرعب، التفت السائق نحوهما، وتطلع بفضول قبل أن يسخر قائلاً: هل ستستقلين السيارة، سيدتي؟"

لكنها لم تجد الكلمات، إذ كان الرجل يجيب نيابة عنها بنبرة باردة:

"لا، سنعود سيرًا إلى منزلنا"

أمسك بيدها وجعلها تتراجع إلى الخلف حتى تحركت السيارة ثم التفت نحوها بإبتسامة باردة وقال بتلاعب: لن يستطيع أحد مساعدتك؛ فنحن نملك زمام الأمور، سترين كيف ستُخلقين من جديد.

شعرت بأن مقاومة الأمر صارت عبثًا، لكن ما كسرها لم يكن الخوف وحده؛ بل فكرة ترك ابنتها وحدها في مواجهة عدو بلا رحمة، اقترب منها، همس في أذنها ولم يزد من كلماته إلا ما زاد ابتسامته اتساعًا فانتفضت

مبتعدة، تصرخ في وجهه: أنتم لستم بشرًا، ولن تخدعوني كما فعلتم في الماضي، سيعود من يكشف مؤامراتكم ويمحو وجودكم الزائف.
أمسك بيدها بقوة، لكنها انتزعتها بسرعة وهربت نحو الطريق، توقفت في منتصفه كأنها تود الفرار إلى قدرها، فجاءت سيارة مسرعة لترفعها في الهواء، وتسقط مضرجة في دمائها.

في منزل مصطفى

جلس مصطفى على كرسيه بعد أن أنهى ترتيب أوراقه المبعثرة وألصق الورقة الممزقة التي أرهقته في البحث عنها، لم يكد يلتقط أنفاسه ويبدأ بقراءة محتواها حتى رن هاتفه، كان الرقم ذاته الذي تحدث معه سابقًا، فأجاب بلهفة، ولكن المتصل أغلق الخط قبل أن يتسنى له الكلام، مرّت لحظات ثقيلة ثم جاءه إشعار برسالة جديدة ضغط عليها بارتباك، ليظهر أمامه مجموعة صور لوالده محاطًا برجال بزي رسمي، وخلفهم لافتات غامضة لم يتمكن من فك شفرتها.
انقلبت ملامحه، ثم تلقى رسالة أخرى تحمل وثائق بأسماء شخصيات بارزة؛ فجحظت عيناه من الصدمة، تلك الأوراق لو سُربت، لأحدثت فوضى عارمة، فمن يستطيع تزييفها؟ لم يُمهله التفكير طويلاً إذ رن الهاتف مجددًا، أجاب بعصبية:

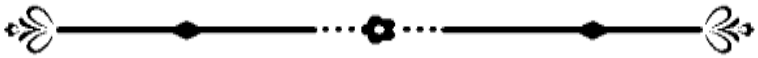

"من تكون؟ وكيف التقطت هذه الصور؟ ستُحاسب على فعلتك!"

جاءه صوت طفولي خافت، تحول إلى نبرة واضحة: اليوم ماتت أمي وقبل رحيلها، أوصتني بالبحث عنك وإرسال المعلومات إليك، هذه هي البداية فقط، وستجد البقية عند قراءة المذكرات.

أحس مصطفى بقبضة باردة تلتف حول عنقه، وكأنما تتسلل الأصوات عبر الجدران، تقدم ببطء نحو النافذة، يتفحص إن كان هناك من يراقبه، ثم تساءل بصوت مرتجف: من أنت؟ عن أي مذكرات تتحدثين؟

أجابت ببرود: "لا داعي للخوف؛ فأنا من وضعتها في منزل مروان، وفقًا لقسم قطعته لسارة بعدم قراءتها"

قاطعها بصوت متوتر: هذه الأمور خطيرة للغاية، ولا يمكنني تصديق ما تقولين.

لكن المكالمة انقطعت كما يحدث دائمًا، وعندما حاول الاتصال بها مرة أخرى، وجد هاتفها مغلقًا.

جلس بغضب أمام المذكرة التي بدت له كخصم لا بد أن ينتصر عليه، أخذ نفسًا عميقًا وبدأ في قراءتها من جديد، عازمًا على كشف الحقيقة التي تتربص بين السطور.

....

يوم الجريمة السابع عشر من إبريل لعام ألفين وأربعة

رنين الهاتف قطع سكون الليل كدقات طبول مفاجئة، ليوقظ سارة في الرابعة فجرًا، نظرت بتثاقل إلى الشاشة، لكنها لم تتمكن من معرفة المتصل قبل أن يتوقف الهاتف عن الرنين وبعد أن توقف عادت لتستسلم للنوم، غير أن الهاتف لم يترك لها فرصة، إذ انطلقت منه أصوات متعددة، كأجراس إنذار تدق بقوة؛ فنهضت مرعوبة وكأنها أفلتت من كابوس خانق، رأت اسم مروان الذي حاول الاتصال بها عشرات المرات خلال اليوم، تسأل نفسها في دهشة:

"كيف لم أسمع الرنين؟"

اتصلت به، إلا أن هاتفه كان مغلقًا وعندما حاولت مرة أخرى لم تجد جوابًا، نهضت لتعد قدحًا من القهوة علّه ينقذها من ألمٍ كاد يهشم رأسها جراء عملها الطويل في التشريح، تشعر بشيء ما ينذر بالخطر.

تقافزت في عقلها أفكار مخيفة جعلتها تحاول مهاتفته مرة أخرى وبينما كانت في غياهب تلك الأفكار بدأ شعور الخوف يتسرب إلى أعماقها، ممزوجًا بذكريات لقاءاتهما القليلة المتناثرة بين أعباء حياتها وعمله الغامض، توقفت عند صورة بعينها، كانت لمروان وهو يبتسم لها بطريقة اعتاد بها أن يمازحها، وكأنها رسالة غير مباشرة يعيد بها الحياة إلى عينيها المثقلتين بالهموم، شعرت بوخزة في قلبها، كأن شيئًا في داخلها يريد أن ينفجر، لكن

سرعان ما قاطع لحظاتها الهاتف برنين جديد، وجدت هذه المرة رسالة نصية من رقم مجهول.

"إن كنتِ تريدين الحقيقة، فلا تثقي بأحد"

انقبض صدرها وارتبكت أنفاسها، ارتجفت يدها وهي تقرأ الرسالة مرارًا، تحاول فك طلاسمها، وكأنها قطعة في لغز معقد لا تعرف كيف تبدأ حله، ماذا تعني؟ ومن الذي أرسلها؟ أفكارها راحت تتزاحم كسيل جارف من الاحتمالات، لكنها أدركت أن هناك شيئًا أكبر يدور حولها ويدفعها لمواجهة حقيقة غائبة.

قررت ألا تترك هذا الخوف يستحوذ عليها؛ فارتدت ملابسها على عجل، والتقطت حقيبتها وقبل أن تغادر، عاود الهاتف الرنين مرة أخرى، لكن هذه المرة قدم المتصل نفسه فقد كان مديرها في العمل، أجابته وهي تحاول أن تلتقط أنفاسها ليخرج صوته مليئًا بالغضب: "سارة أريدك الآن في المستشفى"

انتهت المكالمة، وتركها في مواجهة مع المجهول؛ فحياتها تنجرف نحو نقطة لا عودة منها ستفتح عليها أبواب تحمل المزيد من الأسرار.

الدليل السادس

"ثـــورة"

أمام المشفى، اصطف الأطباء في حالة تأهب يترقبون وصول سيارات الإسعاف من المصنع المحترق، بعد انفجار أسطوانة غاز أودت بحياة العديد من الضحايا كانت الأجواء مضطربة، ووسطها تسلل شاب بين الحشود محافظًا على خفض رأسه كيلا يلفت الأنظار، نظر حوله نظرة سريعة؛ فرأى العيون منشغلة بالأدخنة التي ارتفعت بكثافة لتغطي السماء، رفع الهاتف على أذنيه و تحدث بلهجة صارمة قائلًا: "الاتفاق يمضي كما رسمنا، الخطة الثانية قيد التنفيذ"

أنهى المكالمة بابتسامة خبيثة على وجهه وهو يتمتم: لكل شيء ثمن والضعيف عليه أن يدفع.

....

لم تفكر سارة كثيرًا، أغلقت الهاتف بعزم واندفعت نحو الباب دون أن تنتظر، احتضنت حقيبتها بحركة واحدة، وخرجت من باب الشقة بخطوات سريعة متلاحقة، استقلت سيارة أجرة، وقد قررت الذهاب إلى منزل مروان، تحركت السيارة عبر شوارع المدينة المتشابكة، ظلت تراقب المباني والأضواء الباهتة تمر بجانبها، تشعر بالوقت يتسرب من بين أصابعها

وصلت أخيرًا، هرعت خارجة من السيارة قبل أن تكتمل حركة توقفها مشهد سيارات الشرطة والإسعاف بأضوائها الوامضة أكد أن شيئًا جللًا قد وقع، نظرات مشتتة وهي تجد نفسها تقف أمام المبنى الذي يقطن فيه مروان، شقت طريقها بين الحشود المتجمعة بخفة متجاهلة الأسئلة الفضولية والمشاهد المربكة، وعندما وصلت إلى الطوق الأمني، واجهها أحد الضباط، عرفت نفسها بسرعة؛ فسمح لها بالدخول إلى منطقة الجريمة، صعدت مهرولة كالمجنونة بالرغم من ثقل قدميها، تسأل نفسها كيف يمكن للخوف أن يكون بهذا الثقل الذي يجردك من نفسك؟ أمرًا قد يصعب وصفه وقد يكون أشبه بالموت الرحيم.

اندفعت نحو الشقة، رفعت عينيها نحو الجثة المسجاة على الأرض شعرت برجفة تسري في جسدها، لكنها تماسكت وبدأت بتقييم الموقف، لحظة أغمضت فيها عينيها ظنًا منها أن ما يحدث ليس سوى مزحة من مروان أو حُلم سيء وستفيق منه والآن ستفتح عينيها وتراه يقف أمامها يخبرها أنه بخير.

الجميع يتصارع من حولها، أصوات تناديها، إنه موقع العمل الذي كانت ستعمل عليه، المكان يدور من حولها، قدماها تخوناها، وفي لحظة سقطت أرضًا مغشيًا عليها.

بعد ساعات بدت كأنها جبل يزحف على رمال هشة، أفاقت ببطء الصمت يلف المكان، حاولت النهوض، لكن عينها وقعت على يدها المعلقة بحقنة

موصولة بأنبوب، قبل أن تستوعب، دخلت الممرضة بابتسامة مطمئنة قائلة: الحمد لله على سلامتكِ دكتورة، أغمي عليكِ بسبب انخفاض ضغط الدم، أنت بخير الآن.

طلبت المغادرة ومساعدتها في ارتداء ملابسها، وما إن استعادت توازنها، انطلقت بخطوات سريعة نحو المشرحة، وكأن شبحًا يطاردها، دفعت الباب بقوة، فصدر صوتًا مزعجًا جلب انتباه دكتور حمدي وجعله يلتفت خلفه ليرى الزائرة الثائرة.

نظر إليها بعينين خبيرتين، بينما كانت أنفاسها تتسارع في محاولة يائسة للسيطرة على فوضى مشاعرها، بادرها حمدي بابتسامة باردة، قائلاً: أهلاً دكتورة، هل أنتِ مستعدة لمغامرة جديدة؟

ثم واصل كلامه دون أن يرفع عينيه عن الجسد المسجى أمامه، وكأن لا شيء خارج تلك الغرفة يستحق انتباهه، لم تستطع تحمل المشهد، فصرخت بصوت مبحوح: "توقف"

رفع حمدي نظره إليها ببطء، وعلى وجهه ابتسامة ساخرة، قال بهدوء مستفز: ماذا يحدث معكِ؟ تتصرفين كأنها أول مرة تشاهدين فيها تشريح جثة!

كانت ترتجف، تشعر وكأن الأرض تسحب من تحت قدميها نحو هاوية لا نهاية لها، أخذت نفسًا عميقًا بصعوبة وسألته بصوت مرتجف: - كيف مات؟

لم يجبها؛ بل اكتفى بنظرة طويلة حاول من خلالها قراءة خوفها أعادت سؤالها، هذه المرة بصوت أقوى، وكأنها تبحث عن شيء تعرف مسبقًا أنه سيؤلمها:- كيف مات؟

أجابها بخفة قاتلة: الضحية فتاة، وليس رجلاً.

شعرت سارة للحظة أن الحياة عادت لجسدها، لكن الفرحة سرعان ما تبخرت وهي تهمس بصوت متحشرج: "أين مروان"؟

وقفت في مكانها، مزيج من الخوف والارتياح يجتاحها، عاجزة عن إيجاد الكلمات أو حتى الخطوة التالية.

من قلب فيلا المهندسين، تعالت نبرة هدى وهي تنادي على الست فوزية الخادمة العجوز التي أثقلتها سنواتها؛ فتسللت بخطوات ثقيلة نحوها، أُلقيت عليها بعض الأوامر، لم تتحدث، فقط أومأت برأسها بخفة، فقد كان دورها كفيلًا بإبقاء المكان في حالة دائمة من الانضباط؛ فلا صوت يعلو على الهدوء البارد في المنزل.

انسلت هدى نحو غرفة المكتب؛ فهي وكرها الذي تتمتع بالبقاء فيه حيث لمسات زوجها عزيز موجودة في كل مكان، اقتربت من لوحة معلقة على

الحائط، أطالت النظر في قسمات وجهه القمحي، وبينما كانت تبتلعها تلك اللحظة، أحست بلمسة باردة على كتفها، انتفضت والتفتت مذعورة، لتقابل عيناها عينيه؛ فضحكت بارتياح وقالت بدلال أنثى تدرك كيف تُتقن دورها: لقد أفزعتني حبيبي.

طوقها بذراعيه وهي تهمس له بنغمة مشاكسة، كطفلة تتدلل على والدها، تعيش اللحظة بكامل حضورها.

ابتسم ثم قادها إلى الخارج حيث الغداء، جلسا متقابلين، وبعد لحظات من تناول الطعام، كسر عزيز الصمت بسؤال: هل تحدثتِ مع سارة اليوم؟

رفعت حاجباها في دهشة، إذ قلما اهتم بذكر صديقتها، ردت ببطء وكأنها تسير على خيط رفيع من الحيرة: منذ متى وأنت تسأل عن سارة؟ أعلم أنك لا تطيقها في المشفى!

أجابها عزيز بهدوء:- يبدو أنك لا تعرفين ما جرى معها.

انقبض قلبها، وظهرت ملامح القلق على وجهها:

- ماذا تقصد؟ هل أصابها مكروه؟

تابع عزيز طعامه ببرود، ثم قال بنبرة هادئة:

- وقعت جريمة قتل، وصديقتكِ على صلة وثيقة بالقاتل.

وقفت هدى مصدومة، وسألت بلهفة:

- هل تقصد مروان صالح الصحفي؟

أومأ عزيز برأسه دون أن يرفع عينيه عنها وتابع:

- نعم، كان صديقكما في أيام الدراسة، أليس كذلك؟

جلست هدى محطمة، غير قادرة على استيعاب الأمر، أمسكت هاتفها بيد مرتجفة، محاولة الاتصال بسارة، نظر إليها عزيز قائلاً ببرود: - لا تحاولي الاتصال بها الآن

سألته بصوت متهدج:

- لماذا؟ هل حدث لها مكروه وأنت تخفي عني الحقيقة!

رد بجمود:

- الجميع حولها في المشفى؛ فلا تقلقي.

حبست أنفاسها للحظة، ثم قالت: - وماذا عن مروان؟

ابتسم بسخرية، وعلق بنبرة جافة: - لست المحقق.

مدّ يده وربت عليها لتهدئتها، ثم وقف مغادراً عندما رن هاتفه، تركها في قلقها وهي تحاول الاتصال بسارة، بينما شبح الخوف يزداد ثقلًا في قلبها، فقد كانت تجمعها بهما صداقة طويلة الأمد منذ الطفولة فثلاثتهم قضوا فترة شبابهم داخل جدران المدرسة الخاصة التي تديرها والدة هدى، وحتى هذا اليوم على تواصل كلما سنحت لهم الفرصة.

أثناء شرودها انفتح الباب ودخل عزيز، بدت على وجهه ملامح القلق، لكن هدى استجمعت شجاعتها وسألته بحدة: هل هناك شيء آخر لم تخبرني به؟

أجاب ببطء، كأنه يختار كلماته بعناية:

- لا أريد أن أزيد من قلقك، لكن يجب أن تعرفي أن الوضع معقد.

شعرت بالغضب يتصاعد في داخلها: كيف يمكنك أن تكون هادئًا في مثل هذا الموقف؟ صديقتي مهددة، وحياتها في خطر.

اقترب منها، وأمسك بيدها: لا نعرف كل شيء بعد، دعينا ننتظر حتى نحصل على مزيد من المعلومات.

- وماذا إذا كان الوقت يداهمنا؟

تنفس بعمق، وقال: سنواجه هذا معًا، لكننا بحاجة إلى بعض الهدوء الآن.

حاولت أن تهدئ من روعها، لكنها كانت تعلم أن الخوف لا يزال يزحف إليها، وبداخلها تشعر أن ما حدث ليس مجرد حادث عابر؛ بل بداية لشيء مظلم كانت تخشاه منذ زمن.

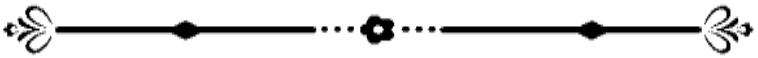

الدليل السابع

"جريمة لم تكتمل"

في المشفى، جلست سارة خلف مكتبها، يتسلل الذهول إلى ملامحها وعيناها تفضحان اضطرابها الداخلي، بجانبها الدكتور حمدي ينظر إليها بجدية، يخبرها عن تفاصيل البلاغ الذي وصلهم والشرطة التي لم تعثر على أثر لمروان، ارتجف صوتها وهي تكرر: كيف حدث هذا؟ كانت كلماتها تحمل انكسارًا وحيرة، تطلب تفسيرًا لمعضلة لا يمكن فهمها، حاول تهدئتها، قائلًا: سارة، نتائج التشريح لم تظهر بعد، علينا الانتظار.

لكنها لم تستطع تحمل تلك الفكرة، عقلها يصرخ بأفكار متضاربة ودون وعي، انتفضت واقفة وقالت بإندفاع مستدركة الحديث:

- لا يمكنني البقاء هنا، يجب أن أبحث عنه، حياته في خطر.

وقف حمدي في طريقها قابضًا على يدها بقلق: هل فقدتِ عقلكِ؟ الشرطة ستراقبكِ لأنك الأقرب له، لا يمكنكِ المجازفة.

ردت بنبرة غاضبة، صوتها يتحدى ما يحدث: مروان ليس قاتلًا، ولن أسمح أن يتعرض للأذى، هم من حاولوا قتله من قبل، أنا متيقنة أن هناك مؤامرة خلف هذا كله.

اقترب منها وقال بصوت خافت:- عليكِ توخي الحذر، لا يمكنك المواجهة وحدك، عليكِ إخبار الشرطة بكل شيء، فهم الوحيدون القادرون على حمايتك.

حملت حقيبتها وهمت بالخروج، حاول إيقافها مرة أخرى، نبرة صوته أخذت طابع الاستعطاف: سارة، لا يمكنك الاستمرار بهذا الشكل اذهبي إلى المنزل، ارتاحي، دعيني أتعامل مع التحقيق، وسأخبركِ بكل ما أتوصل إليه، انتظري لحظة!

فتح أحد أدراج المكتب وأخرج ملفًا صغيرًا، ناولها إياه بحذر وقال: هذا ملف المعاينة الذي كتبته النيابة عند اقتحام الشقة، راجعيه بعناية، فقد تجدين فيه ما يساعدكِ، لكن إياكِ أن تذكري لأحد أنني أعطيتكِ إياه، تذكري أن كل خطوة الآن محسوبة، وأنتِ مراقبة.

أخذت الملف بيد مرتجفة، حدقت فيه للحظات قبل أن ترفع رأسها وتشكره، ثم غادرت بخطوات ثابتة وبداخلها قوة على البحث عن حقيقة ما حدث، بينما ظل واقفًا مكانه، يتمتم بقلق، يسأل نفسه هل ما فعله صواب؟ أم أنه زاد الأمر سوءًا!

وقفت سيارة أمام المشفى، ثوان حتى ترجل منها رجلان يبدوان بمظهر مريب، هيئتهما تعكس الانضباط والصرامة ونظراتهما الحادة التي تنم عن حذر دائم واستعداد كانت كافية لتكشف عن طبيعة شخصيتهما

كضباطين شرطة، حينها مرّت سارة عابرة البوابة، لكنها ما أن خطت قدماها الطريق حتى جاءها الصوت الحاد من الخلف:

"دكتورة سارة"

استدارت ببطء، قبضة حاجبيها تخفي مزيجًا من الحذر والغضب: "نعم"

تقدم خطوة، ثم أبرز هويته بنبرة غير قابلة للجدل: "نحن بحاجة للتحدث معكِ بخصوص الصحفي مروان الشاذلي

استسلمت ملامحها لصدمة خاطفة، شحبت الكلمات بين شفتيها المرتجفتين: "هل عثرتم عليه"

تبادلا المحققان نظرات خاطفة بينهما، قبل أن يعود أحدهما بنظره إليها واستطرد الحديث قائلا:

"هذا ما نود معرفته، دكتورة، عليك مرافقتنا"

ازدادت نبضات قلبها، لكنها حاولت التماسك وقالت:

"أنا لست متهمة، أليس كذلك! كما إنني لا أعرف أين هو"

ألقى إليها نظرة محايدة، بابتسامة باهتة وقال:

"مجرد إجراء اعتيادي، بحكم أنكِ المقربة منه"

ترددت لحظة، قبضت على حقيبتها بإحكام وكأنها تخفي شيئًا، ثم أجابت: "سأذهب، لكن... أبتلعت جملته ثم وضعت الملف في حقيبتها وكأنها تطرد فكرة عابرة، ورحلت معهما مستسلمة لمصير لا تعلمه بعد.

سريعا ما تضعنا الحياة على مفترق طرق، فيتوجب علينا أن حريصين حين نختار، فالهدف المنشود لن يكون سهلا الوصول إليه.

"وهذا ما وقعت داخله سارة حين وقعت فريسة لتلك الخيارات"

....

عند مدخل مديرية الأمن، كان المشهد يغلي بصمت الجنود وتحياتهم المقتضبة، قادها أحدهم عبر ممرات طويلة إلى غرفة ضيقة بالكاد تضيئها مصابيح صفراء شاحبة، جلس المحقق علاء خلف مكتبه، ألقى نظرة عابرة نحوها، ثم أشار دون كلام إلى الكرسي أمامه:- اجلسي.

جلست بصمتٍ مشوب بالتوتر، وهو ينزع معطفه ببطء، أشعل سيجارة، نفض رمادها على المكتب، ثم سأل بصوتٍ رتيب يحمل تهديدًا مبطنًا:- ماذا تعرفين عن الجريمة؟

تشبثت بجوابها كغريق:- لا شيء.

طلبت كوب ماء وهي تحاول إخفاء التوتر البالغ حلقها، و بعد رشفة سريعة، أكملت بهدوء مصطنع: -كنا في الإسكندرية الشهر الماضي وتعرض مروان لحادث، وحينها أخبرني أن الأمر كان مدبر.

لمعت عينا المحقق، وقد جفلها تركيزه البارد فأستنكر قائلا:

- وما علاقة هذا بالجريمة؟

أحست بتشنج في حلقها، ترددت قبل أن تتكلم:

- أخبرني إنه مستهدف، وهناك من يحاول قتله.

تسللت نظرة غامضة إلى عيني المحقق، وكأنه ينتظر سقوطها في شرك السؤال التالي:- هل أخبرك عنهم؟ هل قبضتم على السائق؟

شعرت بالفخ وأجابت دون وعي:- لا.

ثم أدركت خطأها، رفعت عينيها ببطء:

- لكنني لم أقل إنه حادث سيارة!

لم يتغير وجه المحقق، واستدرك الموقف بقدرته على الإخفاء، أشار برأسه إلى زميله الجالس في الظل، ثم استمر بنبرة خافتة مريبة:

- ماذا لديكِ غير هذا؟

ضاقت عيناها وهي تقول:- مروان بريء.

رفع حاجبيه بابتسامة متشككة:- لو كان بريئا، لماذا يختبئ؟

انتفضت فجأة كأنما أُطلقت نحوها تهمة مباشرة:

- إنه ضحية، هناك من يتآمر عليه.

ارتفع حاجبا المحقق بتفهم ساخر، طقطق بأصابعه على سطح المكتب كأنه يصدر حكما أخيرًا:- انتهينا، يمكنك المغادرة.

لم تصدق ما سمعت، حاولت أن تجد تفسيرًا لهذا الاستجواب الغامض، لكن المقدم ظل في مكانه غارقًا في ظله، غادرت بسرعة، شعورها بالشك يمزقها وهي تهرب من أسوار المبنى الثقيلة نحو المجهول.

عادت إلى منزلها محملة بعبء يكاد يسقطها، وكأن كل خطوة تضيف وزنًا جديدًا. كانت تعلم أن لقاء اليوم قد أشعل في داخلها نيران الشك ووضعتها في مواجهة مع لغز بدا تفكيكه أمرًا شاقًا.

بهدوء متوتر، دخلت غرفة المكتب، وألقت الملف على الطاولة أمامها، لتأخذ نفسًا عميقًا ثم تطلقه بقوة، وكأنها تحاول تحرير عقلها من الأفكار المشوشة.

فتحت الملف وبدأت تتصفحه بحذر وتركيز شديدين، كمن يبحث عن فجوة في جدار متين.

التقرير الأولي

في تمام الساعة الواحدة صباحًا من يوم الأربعاء، ورد بلاغ من مجهول يفيد بسماع صرخات عالية واستغاثة في شقة بالطابق السابع، عقار رقم 9 بحي الزهراء عند وصول المحقق علاء رضوان تبين عدم وجود استجابة من داخل الشقة؛ فتم اقتحامها بعد التأكد من خلوها.

عثر الفريق على جثة امرأة مضرجة بالدماء، الجثمان كان ملقى على الأرض في وسط غرفة المعيشة، وصل الفريق الجنائي سريعًا، وباشر الدكتور حمدي صبيح الفحص، ليُحدد وقت الوفاة قرابة العاشرة

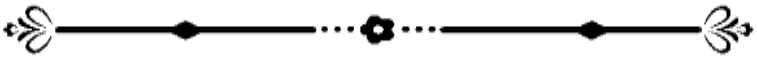

مساء، الطعنة القاتلة كانت في الشق الأيمن من الرقبة، وقد رُصدت طعنات أخرى في منطقتي الصدر والبطن، كما لوحظت حروق حديثة على الذراعين والظهر، يعتقد أنها نُفذت قبل أيام من وقوع الجريمة.

تم التعرف على هوية القتيلة، وتدعى منال الطوخي متزوجة من موظف بإحدى شركات النقل ومقيمة في منطقة الزيتون، الشقة لم تحتوِ سوى على بعض الكتب والأثاث المتواضع، وأثبت أن المقيم الوحيد فيها هو صاحب الشقة، صحفي يعمل بإحدى الجرائد، بعد فحص دقيق للموقع، تبين أن جميع النوافذ مغلقة بإحكام باستثناء نافذة المطبخ، التي وُجدت عليها آثار دماء، مما استدعى حضور قسم الأدلة الجنائية للتحقق من مصدر الدماء.

أغلقت الملف بغضب، وعينيها تشتعلان بتساؤلات بلا إجابة، وكأنها تسمع صدى الكلمات يتردد في عقلها: من تكون منال الطوخي؟ وما الذي قادها إلى هذا المصير المأساوي؟

الدليل الثامن

"لـقـــاء"

كان المشهد في المستشفى مشحونا بالتوتر، وغرفة الطوارئ تئن تحت وطأة المصابين القادمين من حادثة الحريق وفي ركنٍ بعيد، وقف الدكتور عزمي، يراقب بعين حادة خلف ستار نظارته السميكة، كأنما يقرأ تفاصيل الفوضى التي أحاطت به، خطا خطوات وئيدة نحو غرفة مدير المستشفى، الدكتور زيدان، وطرق الباب طرقًا يحمل في طياته ثقل اللحظة، فما إن ارتفع الإذن بالدخول حتى انساب إلى الداخل بخفة ممسكا بمسبحته الفضية ذات رأس أفعى أحمر، كانت تصدر صوتا غريبا.

وقف زيدان أمامه مستنكرا بسخرية: كان ينبغي لي أن أستنتج أنكم وراء الأحداث الأخيرة.

ـ كيف حالك يا صديقي!

قالها الضيف وهو يتخذ مكانه على المقعد المقابل له، بينما ظل زيدان واقفًا، متجمدًا، ضحك الرجل بصوت عالٍ: ما زلت كما كنت، لكنك تخليت عن نظارتك القديمة، ألم تكن تذكارًا من والدك؟

استعاد زيدان تركيزه، وجلس وهو يتحدث ساخرًا: الماضي لا يحتفظ بمقتنياته الباهتة.

ضحك عزمي، محدقًا في صديقه، الذي بدأت نظراته تتساءل عن سبب زيارته المفاجئة.

تبادلا حديثًا محملًا بالذكريات التي لا يرغب كلاهما تذكره مع أنهما مازالا يحملان نتائجها، ثم قال الضيف بنبرة مملوءة بالتجبر: لقد تم تحويل القضية إلى مشفاك، أرغب في إخفاء كل التقارير المتعلقة بها وألا يعلم أحد بحقيقة أمرها.

استند زيدان إلى ظهر الكرسي، ساخرًا: هل تشير إلى جريمة القتل في منزل الكاتب أم الحريق المفاجئ الذي اجتاح المشرحة؟

تبادلا نظرات التحدي حتى قال الآخر: لطالما أعجبتني طريقة تفكيرك، لديك عقلية نادرة، لكنك لم تحسن استغلالها، هل تتذكر عملية العراق، والطبيبة التي أوقعتها في غرامك؟

انفجر زيدان غاضبًا، ضاربًا سطح المكتب بيده: ليس هذا هو الوقت المناسب لاستعادة ذكريات مؤلمة، أخبرتني بما تريد، يبدو أنكم ما زلتم غير قادرين على إخفاء تجاربكم الفاشلة.

ابتسم عزمي، محدقًا بالصورة المعلقة على الحائط، ساخرا: يبدو أنك لم تنسَ، وما زلت تحمل ذكرياتك القديمة.

وقف زيدان، محاولًا إنهاء اللقاء، لكن الآخر كان مصرًا على رؤية تلك النظرة في عينيه بعد سنوات طويلة، أجرى زيدان مكالمة سريعة، ثم قال: يمكنك الرحيل الآن، لا حاجة لعودتك مجددًا، عد لمشفاك فهو بحاجة لكَ.

تأمل عزمي المكان حتى وقع نظره على مجسم هندسي يحمل اسم زيدان، اقترب منه، متسائلًا: ما زالت تسكن قلبك، أليس كذلك؟ يبدو أنك لم تنسها.

تقدم منه وقد أشتعل الغضب بينهما، ألقى زيدان تحذيرا أخيرًا: لا تفتح هذا الباب مرة أخرى، ضحك عزمي، مما زاد من حدة غضب الآخر؛ فتراجع وعيناه تتأججان كبركان ثائرقائلًا: ابتعد عن المشفى، لا أريد أي رابط بيني وبينكم، وإياك أن تفتح تلك الملفات مرة أخرى، ستحصل على ما جئت من أجله، والآن لا أريد المزيد من تدخلاتكم!

تنهد عزمي، وبدأ يداعب حبات سبحته، ضاغطًا على رأس الثعبان: لست صاحب الأمر، وتذكر، لولاي لكنت نزيلًا لدينا منذ زمن!

سخر زيدان: مخطئ يا عزمي! لولاي، ما كان لكم وجود، ولولا ما فعلته لأجلكم، ما كنتم رأيتم نور الشمس. لكنكم خالفتم المعاهدة، ولهذا كان عليّ الرحيل! لكن لم يكن عليك أن تأخذها معك! تذكر، تلك القضية تنتمي إلى الملف 505، لا ينبغي لأحد الاطلاع عليه، سأترك لك الباقي.

قالها عزمي، ثم همّ بالمغادرة، تاركًا زيدان في دوامة من الحيرة.

****

توقَّف عزمي بسيارته الفاخرة على جانب الطريق، منتظرًا أتباعه الذين كلفهم بمهمة سرية، بعد لحظات اقترب منه الشرطي علاء ومعه زميله،

يحملان ملفًا بين أيديهما، نظر إليهما عزمي نظرة تقييم، ثم أثنى على سرعة تنفيذ أوامره وأردف بتوجيه آخر.

مدّ يده إلى ظرف على المقعد بجانبه، وأخرج منه صورة لشاب في مقتبل العمر، رفعها أمام علاء قائلًا بنبرة صارمة: هذا الشاب سيتم نقله قريبًا عندك، أريد أن تكون ظله، لا يفلت من نظرك لحظة واحدة، كن له تابعًا، حتى لا يشك بشيء.

لم يرتح علاء للوصف، لكن نظرة عزمي الحادة قطعت عليه أي اعتراض، أومأ برأسه في صمت؛ فتناول عزمي ملفًا آخر وقدمه له، وقال بصوت خافت:

احفظ الاسم جيدًا "مصطفى عبد الحميد الشاذلي" وتخلص من الملف فورًا.

أغلق عزمي نافذة السيارة وأشار للسائق بالانطلاق وأثناء الطريق، أمسك هاتفه واتصل بشخصية غامضة قائلًا: لقد تم كل شيء، سيدي، القضية ستغلق قريبًا.

جاءه صوت ضحكة خافتة من الطرف الآخر، متبوعة بتعليمات صارمة:

أحسنت، يا عزمي، الآن أريد أن أعرف السر الذي يخفيه زيدان بشأن تلك الفتاة، ولماذا يحميها؟ ابقَ على مقربة منها دائمًا، واكتشف ماذا سلم لها الصحفي قبل اختفائه.

أغلق عزمي الهاتف، ثم أخرج صورة قديمة لامرأة شقراء، مغمورة بلون باهت، مكتوب أسفلها بخط دقيق تاريخ "9/15 – طهران".

....

في غرفة مظلمة تضج بالرهبة، يتوسطها طاولة مستطيلة وحائط مضاء بجهاز عرض يعرض صورًا وبيانات دقيقة، وقف رجل في ظل الضوء ملوحًا نحو الشاشة، يستعرض شبكة من المعلومات أرسلها أحد العملاء من الخارج، فجأة، قطعت كلماته صوت خطوات معدنية لعصا حديدية تقترب، ثم صوت أجش يقول بحزم: لا أحتاج إلى هذه التفاصيل... أعطني النتائج التي وردتك من الخارج وأطلعني على حالة جماعتنا هناك، هل وصلهم الدعم الكافي؟

- عملاؤنا وصلوا إلى طهران، وبدأوا التحضيرات للعملية الجديدة، جميع المعدات جاهزة، وهم في انتظار إشارة البدء.

ازداد الرجل ابتسامة، بينما تدخل شخص آخر مقدمًا تقريرًا حول عملية "تطهير" أخيرة، اكتشفوا من خلالها العنصر "الرمادي" الذي كانوا يتعقبونه.

وسط نظرات ترقب من الجميع، رفع الرجل عصاه مجددًا؛ فازدادت الأضواء، ليظهر جمع من الشخصيات البارزة، تتوزع بينها مناصب حساسة داخل وخارج مصر، وقف الجميع منتظرين كلمته الأخيرة:

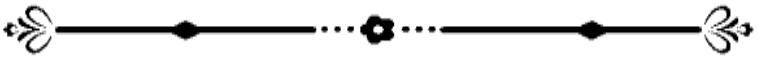

- الآن أصبح لدينا قاعدة في كل مكان بالعالم، قريبًا، سنضع أيدينا على العنصر الذي سيزيد من قوة تحالفنا وكما تعلمون، سنصبح أكثر قوة وتأثير.
تعالت التصفيقات ورفعت الكؤوس احتفالاً بنجاحهم الغامض.

الدليل التاسع

"اخـتبــاء"

أصبح عقل سارة أشبه بآلة، تعمل بلا هوادة، تضع أمامها ما حدث خلال الآونة الأخيرة، تفكر كيف يمكنها أن تكشف حقيقة ما حدث مع مروان؟ وإذا بالأفكار تضجّ داخل عقلها لتدرك أنه عليها البدء من مكان الحادث، كيف لم تفكر بالذهاب إلى هناك لمعاينة الشقة! طرقت على قدميها بقوة وكأنها فرس تشد من عزيمتها، ذهبت سريعًا نحو غرفتها، أخرجت إحدى حقائبها وراحت تعبث داخلها حتى أمسكت أصابعها مجموعة فضية من المفاتيح، نظرت إليها لتبحث عن مرادها إلى أن وجدت نسخة من مفتاح شقة مروان.

استقلت السيارة على عجل، وانطلقت كأنها في سباق مع الزمن نفسه كانت الطرقات تمتد أمامها بلا نهاية، بينما في داخلها يتصاعد العتاب، ذنب ثقيل يطاردها كظل لا ينفك عن ملاحقتها، وفي عمق عقلها، صوت قاسٍ يجلدها بلا رحمة: "كيف استطاعت أن تتركه عالقًا في دوامة تلك الألغاز، وهي على يقين بالخطر الذي يلتف حوله كالأفعى"

وصلت إلى وجهتها، ترجلت بسرعة من سيارة الأجرة حتى لا يراها أحد، تنظر حولها متوجسة مما سوف يحدث، فقد صار ينتابها شعور أنّ هناك من يتبعها، أصبح الشك أشبه بشوك ينخز عقلها.

تسير بخطى سريعة، اقتربت من المبنى وقبل أن تدلف إلى الداخل وضعت شالًا حول رأسها، بدأت تسير بخيفة كلصة تحاول الاختباء، تتباطأ خطواتها وهي تعبر البوابة الأمامية للمبنى، وقبل أن تتوجه نحو الدّرج تذكرت أنّ للمبنى مدخلاً آخر؛ تسللت بأقدام هادئة، وأسرعت نحو درجات السلم الخلفي، وصلت إلى الشقة، وجدتها محاطة بشريطة وضعتها الشرطة وعليها علامات من الشمع الأحمر، وقفت تتطلع حولها تخشى أن يأتي أحد ويراها، وإذا بها تسمع صوت ضجة قادمة من النافذة الخلفية، توجهت نحو الباب، أزالت الشريط وأخرجت المفتاح وفي سرعة حاولت فتحه، ركلته ثمّ دخلت وأغلقته خلفها، راحت تستند عليه تلتقط أنفاسها، تحاول أن تهدأ قليلًا، دقائق ظلت واقفة، تمسح بعينيها المكان، كانت الشقة مظلمة، تفوح منها رائحة الموت، تلك العتمة قبضت قلبها، نظرت أمامها رأت بقع الدماء التي ما زالت على الأرض، وعلامة مرسومة حول مكان الجثة، تخيلت ما حدث بعد أن قرأت تقرير الحالة، لتُعيد الأحداث أمام عينيها، لماذا تم نقل الضحية ليقتلوها هنا بعد أن تم تعذيبها عن طريق الحرق؟ كيف خاطروا بهذا الأمر؟ كان من الممكن أن يراهم أحد وتفشل خطتهم، أخذت تحوم حولها وكأنها مجسدة أمامها، ترسم كل الجوانب وتحاول أن تبحث عن الثغرات التي يكون قد غفل عنها الجميع، حتى أفاقت من مخيلتها وبدأت البحث في المكان، دلفت إلى غرفة مروان وللحظة شعرت بشعورٍ غريب، عندما رأت أغراضه مبعثرة على الأرض وقد مُزق البعض منها.

وقفت متنهدة قليلًا، لكنها جاوزت تلك اللحظة وبدأت تبحث عن دليلٍ لبرائته، أخدت تفتش في كل مكان، لم تترك ثغرة إلا ونظرت فيها، فتحت خزانة ملابسه، لاح لها أن هناك ملابس مفقودة، نظرت حولها، بدا أن مروان قد أخذ بعضًا من أغراضه قبل رحيله، وقفت لبرهة، تتساءل، هل يعقل أنه كان يعلم بالفخ الذي أوقعوه فيه، وبدلا من صدهم فر هاربا؟!

اخترقتها الكثير من الأصوات لكنها لطالما كانت قوية ضد تلك المواقف وعليها أن تظل بكامل قوتها كي تبحث عن حقيقة ما حدث.

لم تيأس وظلت تبحث في أرجاء المنزل حتى أنهكها البحث؛ فقررت أن ترحل قبل أن يشعر أحد بوجودها، لتعاود محاولتها مرة أخرى.

ولجت إلى الغرفة مرة أخرى لجلب حقيبتها وأثناء خروجها استمعت إلى صوت قادم من الخارج، تصلدت قدماها في الأرض، التزمت الصمت؛ فعاد الصوت مجددًا، تراجعت ببطء إلى الخلف وهي تبحث حولها عن شيء تدافع به عن نفسها؛ فهي تجهل من هذا الذي ظهر فجأة والشقة مغلقة بأمر من الشرطة.

بدأت تشعر بالتوتر والخوف من هذا الزائر الخفي، اقتربت من باب الغرفة وقد حملت وتيرة الدفاع فور رؤيتها لمن يكون، رفعت العصا التي وجدتها عاليًا وظلت تقترب حتى فتحت الباب فجأة وهي تصيح من تكون! لكنها لم تلقِ جوابًا أو ردة فعل، المكان خالي؛ بل كان الصمت الذي يخلفه مخيفًا أكثر من ذي قبل.

تنفست الصعداء وهي تنظر حولها، ولكن من أين إذًا أتى هذا الصوت؟! وإذ بها تستمع له مرة أخرى، قفزت للخلف في حركة انتفض لها جسدها؛ فالصوت قادم من المطبخ، راحت تصيح: من تكون؟ ارني وجهك.

لكن لم يكن هناك من مجيب، ثوان حتى لاح لها ظلًا يقترب، ظلت تتراجع إلى الخلف وكثير من الصور المخيفة تلاحقها، ماذا سيحدث إذا حاول الهجوم عليها وهي وحدها؟ وقبل أن تفتعل أي ضجة استمعت لصوت مواء القطة، أخذت نفسًا عميقًا محملًا برزاز من الخوف الذي شعرت به في تلك اللحظة، وضعت يدها على قلبها تحاول تهدئته، اقتربت من القط حملته وهي توبخها: كيف فعلتِ بي هذا سيزار؟!

فقد كان القط الذي أهدته لمروان في عيد ميلاده العام الماضي، ربتت عليه وفجأة توقفت، من أين أتى؟! وكيف لم تجده الشرطة عندما كانت تعاين الشقة؟! لم يذكر أنه كان موجودًا.

بدأت الشكوك تتراكم داخل عقلها مرة أخرى، فراحت تبحث عن حقيبته، وضعته داخلها؛ شعرت أن فروه ملطخ بمادة غريبة لزجة أخرجت منديلًا ونظفته، ولكن من أين أتت تلك المادة فقد كانت ملتصقة أسفل منه.

حملته وأثناء خروجها، سقط شيئًا وأحدث ضجة عالية، تراجعت بفزع وهي تنظر صوب مكان الصوت، فقد أتى من غرفة مروان التي كانت تختبئ

داخلها، ازادات دقات قلبها وهي ترى خيالًا طويلًا يظهر من خلف الباب، تيقنت أنها لم تكن وحدها في المنزل، لكن كيف لم تره وقد قضت وقتًا طويلًا داخلها.

أسرعت بخطاها لتغادر المكان بسرعة حتى إنها تركت الباب خلفها مفتوحاً دون أن تدرك بالعين التي كانت تترصدها وتراقبها.

....

تحت وطأة الاضطراب المكبوت خلف ملامحه الصارمة، ألقى رؤوف تعليماته النهائية، أمر جميع الأطباء بتحويل كافة مسؤولياته لطبيب آخر، مشددًا بعدم إزعاجه مطلقًا خلال فترة غيابه؛ بل وعمد إلى قطع خط الهاتف عن مكتبه وإغلاق هاتفه المحمول، جلس يداعب الأوراق بتوتر لا تخطئه العين، يلتقط بعضها بقبضة مشدودة، يمزقها بتنهيدة قاسية ويلقي بها جانبًا، وكأنه ينفث عن غضب مكبوت، متعمقًا في هذه الدوامة حتى أتاه صوت طرقات مترددة على الباب.

صاح بحدة، وقد أعتقد أنه رمضان الساعي:

ألم أخبرك أنني لا أريد إزعاجًا؟! ألا تفهمون حديثي منذ المرة الأولى؟

حين دخل عزيز، رفع رؤوف بصره إليه بملامح يكسوها التوتر، مما أثار دهشته؛ فهو لم يشهد هذا الوجه المكفهر لرؤوف من قبل، بادر الأخير دون تردد: اجلس، أحتاجك لأمر هام.

جلس عزيز، يتملكه قلق مكتوم بين شفتيه المغلقتين، متجنبًا الكلام حتى يفصح رؤوف عما يجول في خاطره، مرت لحظة متوترة في صمت ثقيل، حتى تنحنح عزيز، معلنا استعداده للاستماع، نظر له رؤوف بنظرة تخلط بين الجد والاعتراف، وقال بصوت منخفض: أعلم أنك تريد معرفة ما يجري، ولماذا اشتعل غضبي فجأة؟

ابتسم ابتسامة باهتة، وقال بصوت خافت: أراك قلقا يا دكتور، وهذا ما يقلقني عليك.

بأصابع متشابكة وعصبية، مال رؤوف إلى الخلف وتابع: عزيز، أعرف كفاءتك في إدارة القسم، ولذلك قررت تعيينك نائبًا لي خلال فترة غيابي، هذه فرصتك لإثبات جدارتك، سأسافر في رحلة قصيرة لأستعيد طاقتي.

راقبه بتمعن، وفي داخله شعور غامض بين التوتر والطموح، يدرك العبء الذي ينتظره لكنه يشعر بشيء خفي يدفعه للمضي قدمًا، وكأنه أمام فرصة لمعرفة أعمق مما يظهره الوضع.

وقف رؤوف وجمع أوراقه بعجلة، ثم ألقى تعليمات حازمة: عليك إصدار قرار قبول استقالة الدكتورة سارة فورًا.

قطب عزيز حاجبيه في تساؤل: استقالة الدكتورة سارة؟ هل هذا حقيقي؟

أجاب بثبات: افعل ما قلته ولا شيء سواه.

رحل رؤوف، تاركًا خلفه موجة من الهمسات التي اشتعلت في أرجاء المستشفى كالنار في الهشيم، الكل يهمس بأسرار خفية بين رؤوف وعزيز، إشاعات تتراكم كالغبار، بينما وقف حمدي، تتملكه هواجس مبهمة، في انتظار لحظة رحيل حاسمة

....

وصلت سارة إلى منزلها وهي تتلفت حولها بقلقٍ متزايد، تكاد تتعثر في خطواتها كما لو كانت تهرب من شبحٍ يلاحقها، كان ما رأته في منزل مروان كفيلًا بزرع يقين غامض في أعماقها بأن هناك من يراقبها، من ينتظر اللحظة المناسبة للإيقاع بها، هرعت صعودًا إلى شقتها، قافزة على درجات السلم، فتحت الباب وأغلقته بسرعة، ثم استندت خلفه، تلتقط أنفاسها المتسارعة، محاولة السيطرة على رعب تسلل إلى أعماقها كيدٍ باردة تخنقها.

أخرجت هاتفها، راحت تبحث بين الأسماء حتى استقر نظرها على اسم الدكتور حمدي، همت بالاتصال، لكن الشك تسلل إليها من جديد، كابوسًا ثقيلًا يقيدها ويمنعها من اتخاذ أي خطوة، تراجعت ببطء، تبحث بيأس عن حل أو دليل يوضح لها هذا الغموض المرعب، من هو ذلك الغريب الذي اقتحم شقة مروان؟ وماذا كان يفعل هناك مختبئًا في الظلام؟ وكيف لم تشعر به وهو معها في الغرفة.

كادت تجن، بخطوات مضطربة توجهت نحو غرفة مكتبها، تفتش في أدراجها عن إجابة تنتظرها منذ زمن، أناملها تقلب الأوراق بدقة، آملة في العثور

على أثر أو دليل تركه مروان قبل اختفائه، وفي لحظةٍ مباغتة، شق صوت طرقٍ قوي أجواء الشقة الهادئة، جعلها تنتفض فزعًا، مجمدة في مكانها، تحاول السيطرة على أنفاسها المتلاحقة بينما كانت تحكم قبضتها على مقبض الباب.

الدليل العاشر

"ســـر جديـد"

خرج حمدي من المشفى بخطوات متسارعة، كأن الأرض تلتهب من تحته، يبتعد قبل أن تقع عليه أي عين، في قبضته أخفى التقارير الخاصة بتشريح الجثة، بعد أن صدر أمرا بإخفائها، رفع ذراعه لأول سيارة أجرة، رمى بجسده داخلها قبل أن يدركه أحد، لكنه لم يكن يعلم أن هناك أعين تراقبه.

كانت أصابعه المرتجفة تعبث بهاتفه محاولًا الاتصال بسارة، تصاعدت وتيرة القلق داخله، أخذ يتلفت حوله بشكل مريب حتى توقفت السيارة أمام المبنى الذي تسكن فيه، قفز مسرعًا نحو المدخل، وصل إلى باب شقتها وأخذ يطرق عليه بجنون، تخللت الثواني القليلة صمتًا ثقيلًا بين الخوف والتوتر، إلى أن انتزعت الطرقات سكون سارة الذي لم يطل كثيرًا، صوتها تسلل من خلف الباب المرتجف:- من الطارق؟!

جاءها صوت حمدي ملحًا، يتوسل إليها أن تفتح بسرعة، بيد مرتجفة أدارت القفل ببطء، فتحت الباب على وجهه الشاحب وأنفاسه المضطربة اندفعت الكلمات منها كالسهام، عاتبةً على الفزع الذي زرعه فيها، لكنه لم يجب، وكأن الكلمات جفت في حلقه.

دخل سريعًا وأغلق الباب خلفه، جسده المنهك سقط على المقعد كمن خاض معركة للتو، جلست قبالته تراقب حالته المنهارة، ثم سألته بحدة عن السبب.

لم يجبها؛ بل أخرج بعض الصور الخاصة بالفتاة التي قتلت في شقة مروان، وضعها بشكل متوازٍ أمامها وبدأ يتحدث: انظري إلى هذا الوشم

ثمّ أشار إلى الصورة الأولى واستكمل قائلاً: لوهلة ظنَنتُه وشمًا عاديًا لكن بعد أن انتهيت من فحص الجثة ظهر لي أن تلك الوشوم هي عبارة عن بعض الرموز، لم تكن واضحة بسبب الحروق التي أخفتها.

مال بجسده للأمام وأنفاسه تتسارع، أخرج ورقة من جيبه، فتحها وبدأ يقرأ ما في داخلها.

- لقد أثبتت التحاليل أن العينة التي قُدمت تحمل جينات خاملة من مادة كانت ملتصقة برحم الضحية، مما أظهر لنا أنّ هناك حملًا خارج الرحم وبعد التأكد منه اكتشفنا أنه تم هتكه نتيجة لعملية إجهاض، كما لم نجد مبايض داخلها والتي أكدت أن الحمل تمت زراعته داخل الرحم.

أنهى حمدي حديثه، ثم عاد بظهره إلى الخلف، صمت وهو يرى الشحوب يتراص بين ملامحها، ظل الاثنان يعيدان الحديث نفسه، نظرت سارة للتقارير والصورة وهي لا تصدق ما ترى، ما هذا الذي يحدث؟ ما كل هذا الغموض حول تلك الحادثة.

- الأمر خطير يا سارة، الدكتور زيدان ترك المشفى، وقد أصدر أمرًا بتعيين دكتور عزيز نائبًا له، نحن نعلم استحالة أن يكون هذا الأمر طبيعيًا، الآن ما عاد هناك شيء يثبت ما تم اكتشافه وهذا بعد سحب ملف تشريح الجثة وما اكتشفته زاد من شكوكي.

رفعت سارة يديها لأعلى، وكأنها تحاول التعلق بشيء يجذبها من التيه كيف يمكنها تصديق ذلك، كل ما يحدث يخالف المنطق والعلم، وقفت وهي تردد: هذا ضرب من الجنون!

ظلت تسير ذهابًا وإيابًا لا تعرف أين وجهتها وماذا ستفعل، عادت وجلست على المقعد تاركة لروحها أن تنفث عن غضبها؛ فغاصت في نوبة بكاء كمن مات لها عزيزًا، تنتحب شاعرة بغصة تؤلم قلبها.

جلس حمدي جانبها، حاول الاقتراب منها، أمسك بيديها؛ فشعر بها باردة فانتفضت مبتعدة عنه، وقفت تنظر من النافذة تحاول أن تجفف دموعها، تتمتم بسيل من التساؤلات: لماذا لم يخبرني مروان بكل تلك الأمور؟ كيف استطاع أن يخبئ عني هذا الأمر؟

حاول حمدي أن يخفف من وطأة الصدمة عليها وقال: أعتقد أنه كان يخشى توريطك وتعريضك للخطر!

بادلته الحديث بصمت كاد يطبق على أنفاسها، فراح يستطرد حديثه: لا تقلقي سأكون معك وبجوارك دائمًا، فقط كوني حذرة وسأحاول الوصول لشيء يساعدنا في حل هذا الأمر.

لم تلتفت له وظلت شاردة، ملامحها تحولت لشحوب جثة، لا تعرف كيف يمكن للخوف أن يجردنا من قوتنا ويجعلنا عرايا أمام أفكارنا المتعرجة، شعرت بنغزة باردة أصابت قلبها وجعلتها مغتربة عن أكثر إنسان كان قريبًا منها.

تراجع حمدي إلى الخلف تاركًا الملفات على الطاولة ورحل دون حديث، وقد نشأ داخله عزيمة في أن يحاول كشف هذا اللغز كي يخرجها من هذا المأزق، عاد إلى المشفى يستكمل بحثه وهو يعلم خطورة ما يفعل، لكنه قرر المجازفة من أجل تلك المرأة التي لم يعترف لقلبه أنه يعشقها مع علمه أنها لا تكنّ له من مشاعر سوى الصداقة فقط.

راح يفتش داخل الملفات كمن يبحث عن خلاصه، تراوده صورة سارة وماذا يمكن أن يحدث لها إذا حاول أحد إيذاءها كما فعلوا مع مروان؟ تتشابك الأحداث داخل عقله ليحاول معرفة سر ما يحدث وهل رحيل دكتور زيدان له علاقة؟ تساؤلات كثيرة طرقت عقله حتى كاد يجن.

عند منتصف الليل تمامًا، كانت سارة لا تزال جالسة في مكانها، يغمرها ضوء رمادي باهت يتسلل عبر فتحات النافذة، يبعثر الظلام حولها، لم تشعر بالوقت إلا عندما سمعت مواء القط يحوم بجانبها؛ فتذكرت فجأة أنها نسيت إطعامه، نهضت بسرعة وتوجهت إلى المطبخ، ثم وضعت الطعام أمامه قبل أن تعود إلى النافذة، تغرق في شرودها، وعقلها يعتصره ما أخبرها

به حمدي، أخذت نفسًا عميقًا وحاولت التخلص من الضيق الجاثم على صدرها، توجهت إلى حقيبتها تبحث عن علبة السجائر، لعلّها تنفس عن كربها المتراكم، لكن مواء القط المتقطع جذب انتباهها مجددًا؛ بدا وكأنه يختنق، أسرعت نحوه، وضعت يدها على ظهره بلطف، ثم مال بجسده إلى الجانب، فركضت تبحث عن صندوق الإسعافات، فتحت فمه بحذر باستخدام مسطرة خشبية مسطحة، لتجد شيئًا عالقا في حلقه، سحبته ببطء حتى عاد القط يتنفس بصعوبة.

راقبته بقلق، ثم نظرت إلى القطعة التي أخرجتها من فمه، فوجدتها "فلاشة" رفعت رأسها نحو الطوق حول رقبته، وقد بدت عليه كلمة "مروان". حدقت فيها بذهول، كيف لم تنتبه إلى الطوق سابقا؟ وما الذي يدفع مروان لفعل شيء كهذا؟ وكأن الصدمات تتوالى عليها واحدة تلو الأخرى.
تداركت نفسها وجمعت شتات فكرها، حملت الفلاشة بسرعة وسارت نحو غرفة المكتب، وضعتها داخل اللابتوب، فتحت الجهاز وبدأت تشغيلها، لتتفاجأ بملف مضغوط مغلق برمز سرّي، حاولت فتحه دون جدوى، شعرت بالغضب يتصاعد في عروقها، كأن الحظ يعاندها بشراسة، ضيقت عينيها وعضت على شفتيها قبل أن تقول بنبرة متهكمة: ما هذا الحظ الملعون!

حاولت إدخال الرمز عدّة مرات، إلا أن جميع محاولاتها باءت بالفشل، شعرت بالإحباط لكنها أدركت أنها إن استمرت ستخسر الفرصة بالكامل؛ فقررت أن تتراجع للحظة لالتقاط أنفاسها، تركت المكتب وخرجت دون أن تدري أن البرنامج كان يعمل في الخلفية على تحميل الملف بشكل سري، بينما كان الغموض يزداد عمقا من حولها.

الدليل الحادي عشر

"ضـربة قـاضـية"

دوّت طرقات قوية على الباب، استجمعت شتاتها وظنت أن حمدي قد عاد، وما إن فتحته حتى شهقت، فقد كان الدكتور زيدان، وقفت أمامه مذهولة، وجهها يمتلئ بالحيرة والقلق وقد بدا هو كالهارب، يرتدي بنطالًا فضفاضًا، وسترة واسعة، يخفي وجهه خلف ياقة سترته العريضة وقبعة سوداء، بصوت مضطرب بادرت بسؤاله: دكتور زيدان، ما الذي أتى بك في هذا الوقت؟!

رفع القبعة عن رأسه، وهمس: دعيني أدخل، هناك أمر هام يجب أن نتحدث بشأنه.

ترددت، لم تعد تعرف بمن تثق ولا ما الذي يحدث من حولها، عاد يكرر كلامه، أدركت أن وراء زيارته يكمن جواب الأسئلة التي تطاردها حول لغز القضية؛ فأفسحت له المجال للدخول، دلف إلى الشقة، وسار نحو غرفة جانبية وكأنه يعرف المكان جيدًا، عيناه تدور حول زواياها، لم تستطع سارة السيطرة على فضولها وسألته: هل أتيت لزيارتي هنا من قبل دكتور زيدان؟!

نظر إليها بنظرة متعبة وقال: هذا المكان يشبه منزلي القديم، يذكرني بكل شيء فقدته.

جلست قبالته، تتحدث بهدوء يناقض الغليان الذي يعتمل داخلها: لدي أسئلة كثيرة، وأحتاج إجابات عنها.

نظر إليها بجدية وقال: ليس هذا هو الوقت المناسب يا سارة.

لكنها لم تهدأ، وأكملت بتصميم: علمت أنك طلبت التقارير الخاصة بالضحية، وأنت تعرف أن هناك ما يثبت براءة مروان.

تنهد بعمق، ثم قال: لا أريدك أن تتورطي في شيء قد يتجاوز قدرتك على الاحتمال، لقد حذرتك سابقًا من الاقتراب من مروان وعمله، وها أنتِ الآن في قلب العاصفة.

اشتعلت غضب، ورفعت صوتها تتهمه بأنه تخلى عنه، وسمح لهم بأخذ الدليل الوحيد على براءة مروان، لكنها لا تعرف حقًا ما يحدث أو من يقف خلفه.

حاول تهدئتها قائلًا:- فعلت ذلك لحمايتك، وسأكرر الأمر إن استدعى الأمر.

شعرت بالعجز أمام كمية الأسرار المتشابكة التي يحيطها بها، اقترب منها واضعًا يده على كتفها وقال بصوت خافت: أنتِ بمثابة ابنتي التي لم أحظ بها، أخشى عليكِ من هذا المستنقع، نحن لا نعلم أين مروان الآن أو ما حدث معه تلك الليلة.

وضعت رأسها بين كفيها بعد أن أثقلها التفكير، وبصوت مخنوق بالبكاء همست:

- أنا منهكة، أشعر أن الجميع يتآمر ضدي كما فعلوا مع مروان، الجميع يعتقد أنه مذنب... حتى أنت... قد لا تقولها، لكن أراها في عينيك، لهذا أشعر أنني وحيدة ولا يمكنني الثقة في أحد.

صمت لبرهة كأن الكلمات تثقل على لسانه، ثم اقترب خطوة نحوها وهمس بصوت متحشرج، قائلًا:- هذه المستشفى تُدار بميثاق صارم، ولا أحد يتجاوز القوانين خاصةً في قضايا القتل.

تنهدت بعمق تحمل عبءً أثقل من جسدها، تحدق في وجهه بتردد، ممزقة بين تصديق ما يقول أو اتباع حدسها الذي يدفعها للشك، كانت صامدة، لكن الآن تحتاج لقوة أكبر من ذي قبل؛ فهناك حرب باردة تلوح في الأفق، وجدت نفسها فجأة على وشك خوضها، دون أن تكون مستعدة.

توجه زيدان ببصره نحو صورة معلقة على الجدار، لامرأة شقراء في الأربعينيات من عمرها، تجلس على حافة منحدر بجوار مبنى قديم، أطال النظر إليها وكأنها تبوح له بسر من خلف زجاجها، ثم استدار إلى سارة وقال بصوت عميق: كوني مثلها.. كانت لا تُهزم أبداً.

حدقت فيه، تبحث عن معنى خلف كلماته، تسأل نفسها: من أين يعرف أمي كي يتحدث عنها بتلك الثقة!

قطع حبل أفكارها بإخراج ورقة من جيبه، قدمها إليها قائلاً بجدية: هذا الشخص سيهاتفك قريبًا، وستجدي عنده إجابة لكل ما يحيرك.

نظرت إلى الورقة وقرأت الاسم بصوت خافت: عبد العظيم، من يكون؟

- قريباً ستعلمين، لكن تذكري، كل حقيقة تسعين لكشفها ستطلب منك ثمنًا وربما يصل الأمر أن تدفعين حياتك أو حياة من تحبين.

شعرت بقلبها ينبض بعنف، وكأن كلماته قد أطلقت العنان لموجة من الرهبة اجتاحتها، مد يده ليضغط على يدها برفق، ثم قال بجدية:- اتصلي بي فورًا إذا شعرتِ بأي خطر، سأتولى حمايتك.

همّ بالرحيل، لكنها أوقفته بنبرة متهدجة: دكتور زيدان.. أليس غريبًا أن تعرف تفاصيل قضية مروان؟!

التفت إليها بعينين غارقتين بالغموض، ثم قال: لا تثقلي كاهلكِ بالتساؤلات، انتبهي لما هو آتٍ.

تركها ورحل، تاركًا خلفه دوامة من التساؤلات تُضرم رأسها، أغلقت الباب وعيناها تلتمعان بحيرة وقلق، لم تعتد على هذا العالم الغامض، فلطالما كان عملها مع الموتى بلا خوف، أما الآن فكل شيء يغمره الرعب.

تنبهت إلى صوت صفارة جهازها الذي يعلن انتهاء تحميل الملف، سارعت نحو الغرفة، تحدق إلى الشاشة بلهفة، والرسالة تومض أمامها "جاري التحقق من الملف"

....

سبح حمدي في بحر من الشك والرعب، يشعر وكأن عيون الجميع تلاحقه وتراقب كل تحركاته، نبضات قلبه متسارعة، نقل ما عثر عليه في صندوق الأرشيف، مستندات محظورة تحمل الرمز "505"، لم يكن يعرف ما يرمز

إليه لكن فضوله أشعل بداخله شعلة لا تنطفئ كان يعلم أن ما فعله قد يجعله هدفًا لمن يريدون دفن الأسرار، لذا صنع مخبأ سريًا وضع فيه كل شيء ليضمن أمانه لو كشف أمره.

انتهى من تحميل الملفات، أرسلها عبر إيميلات مزيفة وأخفى وسطها إيميله الحقيقي، ثم خرج من المشفى متوجسًا كمن يهرب من قبضة خفية، أوقف سيارة أجرة، جلس في المقعد الخلفي، وعيناه لا تترك المرآة الأمامية، لمح السائق ينظر إليه بنظرة غريبة، وكأن هناك شيئًا يراقبه من بعيد، فجأة طلب من السائق التوقف، ترجل بسرعة وبدأ يسير في طريق مظلم بلا وجهة واضحة.

توقف عندما رأى أمامه سحابة بيضاء أشبه بالدخان تتسلل بين الأشجار، أخرج هاتفه متوترًا ورفع عينيه ليجد جسدًا يقف بعيدًا عند نهاية الطريق، كتم أنفاسه ثم نطق بصوت مرتجف: من هناك؟ ماذا تريد؟

تحرك الجسد نحوه ببطء، بخطوات متعرجة تثير الرعب، وكلما حاول حمدي التراجع، زادت سرعة هذا الكائن الغامض، تحولت خطواته إلى هرولة جنونية باتجاهه، وكأن الظلام كله يتجه نحوه في عتمة خانقة، بدأ حمدي يركض ويصرخ: "ساعدوني!

....

ما زالت تحاول فك تلك الأرقام المستعصية، تعلم أن مروان شخص مراوغ، لهذا تلاعب بالشريط، لا تعرف لماذا يجعلها تخوض تلك الحرب النفسية،

مع هذا يعلم إنها الوحيدة القادرة على الوصول إليه، أثناء انتظارها، ظهرت شريطة زرقاء في منتصف الشاشة لتعطي لها مؤشر استكمال الملف وجاري فتحه، ثوان وظهر أمامها عدة ملفات كُتب أسفل منها خاصة بالعمل.

ظلت تحدث نفسها: كيف سيخبئ سرًا خطيرًا داخل ملف يحمل تعريفًا صريحًا كهذا، فهو غير معتاد على تلك المصطلحات المباشرة، شعرت إن هذا تمويه منه في حال سقطت الفلاشة في يد أحد آخر.

بدأت تتصفح الملفات الموجودة على الفلاشة والتي كانت لا تستحق مشاهدتها حتى رأت ملفًا يحمل اسم فيلمًا رومانسيًا، ارتسم على ثغرها ابتسامة رضا تعبر عن نجاحها في الوصول للملف المقصود، فهذا الفيلم من قائمة الأفلام التي يمقتها ولا يعلم أحد ذلك سواها، ضغطت عليه ثم ظهر لها فيديو إعلاني قصير وأسفل منه ظهر كود مكون من أربعة أرقام، انتهى الفيديو، ثم نقلها تباعًا لملف آخر، هنا بدأ البرنامج يطالبها بالرقم السري فوضعت الأرقام التي شاهدتها أسفل الفيديو وحينها بدأت الشاشة تظهر أمامها بفيديو آخر.

أخذت نفسًا عميقًا وهي تتمتم: لماذا كل تلك السرية من أجل مشاهدة فيديو، مِن مَن يخشى؟!

ظهرت شاشة سوداء يشوبها تشويش غريب وصوت ضجيج غير واضح، بدا الأمر غريبًا ومزعجًا، هي ما زالت تنتظر أن ترى ماذا سيكشف لها، ثوان

حتى بدأت الشاشة تضيء.. ظهر مقطع من أحد المصانع، كان التصوير غير دقيق كما أنه تم التقاطه من مسافة بعيدة نوعاً ما، لكنها أظهرت المكان الخارجي بوضوح تام.

فجأة انقطع الإرسال لكنه لم يطل كثيرًا حتى ظهر مشهد آخر لمروان وهو يحاول القفز من إحدى نوافذ المصنع، ظهر معه صوت أنثوي لكنها لم تظهر، بل استمعت لصوتها والذي كان مملوءًا بالخوف وقد بدت على حركتها وهي ممسكة بكاميرا، اقترب مروان منها، أمسك بالكاميرا، اختفت الصورة ثم ظهرت مجددًا وقد ظهر أنهما غادرا المكان.

عاد مروان جالسًا على مقعد داخل منزل، بدا عليه الإعياء الشديد، بدأ يتحدث وقد وجه حديثه إلى سارة فهو يعلم أنها ستصل لهذا الفيديو وستستمع إليه.

"سارة أعلم كم عانيتِ الأيام السابقة وكم كنتُ جاهلاً لمشاعرك، لكنني كنتُ مضطراً لفعل هذا فالأمر كان خطيراً، كنتُ أخشى توريطك فيما يحدث ويستطيعون الوصول إليكِ، إذا كنتِ تشاهدين هذا الفيديو بدوني فهذا يعني أنني فشلت في مهمتي وعليكِ استكمال ما بدأته، وعدتك أن أخبرك الحقيقة، لكن هذه المرة يا صديقتي الأمر كان أكبر مني، لهذا قررت أن أترك لكِ الخيط الذي منه ستصلين إلى الحقيقة كاملة وستعلمين لماذا أخفيت عنكِ الأمر، لكنها صارت مهمتك أنتِ يا دكتورة ستجدين البداية في المكان الذي أخفيتِ فيه سرنا، هل تتذكرين؟

من هناك ستبدأ رحلتك، أريدك أن تكوني أكثر حرصا وحذرا.

كانت سارة تعلم ماذا يقصد وإلى ماذا يشير بإخفاء سرنا، لهذا شعرت بالصدمة لوهلة، توقف البث واقترب مروان من كاميرا الفيديو حملها وقال سريعاً: "سامحيني يا سارة".

اختفى مروان من أمامها كما اختفى بريقها معه، مالت برأسها على طاولة المكتب وقد فاض بها العجز والألم، ظلت تبكي، حاصرها الضعف والعجز، ما عادت قادرة على استيعاب ما يحدث.

خارت قواها للحظة، وانهال من فوقها وابل من المشاعر المختلطة، شعرت بضيق كاد يطبق على أنفاسها تحول كل شيء من حولها إلى رصاصة، أطلقت عليها لتمزقها إلى أشلاء.

....

من شارع البساتين المتفرع من ميدان عابدين شارع التراث، وملامح التاريخ المصري تقطن عائلة السيد حسين يعقوب، معيد سابق في كلية الطب، وزوجته السيدة صفية مدير عام الإدارة التعليمية سابقاً. تعلو أصوات القارئ من داخل شقة السيدة صفية شقة تعكس تاريخ ورقي المكان لاحتوائه على الكثير من التحف واللوحات الأثرية القديمة، جلست صفية تنظر لصورة زوجها الذي تغمده الله برحمته منذ خمسة أعوام في حادث أثناء عودتهما من السفر، وإلى اليوم ما زالت تقدم العزاء لنفسها ولعائلتها جراء رحيله.

اليوم هو العام الخامس على وفاته، تشاركها ابنتها الوحيدة هدى وزوجها الدكتور عزيز، تتقدم منها ابنتها، تجلس جانبها، تواسيها بنظراتها التي تحنو عليها بها، فتربت على كتفها، وتميل برأسها لتحتضن ذراعها قائلة:

- أبي محظوظ لوجود زوجة محبة مثلك يا أمي.

ابتسمت لها واحتضنتها قائلة: "وزوجك أيضاً محظوظ بك يابتتي".

لم تمر دقائق ودلف رجل من باب الشقة يحمل أغراضا كثيرة، قامت صفية من مرقدها، استقبلته، ثم حملت عنه الأغراض وقدمت له الشكر قائلة:- لما كل تلك الأغراض يا عزيز ألا يكفي ما جلبته سابقاً.

ابتسم ابتسامة هادئة وأجابها وهو يقبل أعلى جبهتها ويقول: "هذا جزء صغير أمام ما قدمتِيه لي يا أمي، ربتت صفية على كتفه لتشير له نحو هدى التي تجلس بالداخل تنتظره، ثم أخذت الأغراض وتوجهت بها نحو المطبخ.

وفي المطبخ وضعت صفية الأغراض فوق الطاولة، رن هاتفها، نظرت له فوجدته رقما مجهولا توقف الهاتف عن الرنين، ولم تلتفت له لكنه أعاد صراخه مرة أخرى، أجابت بنبرة هادئة متسائلة:- من معي؟! أجابها الطرف الآخر بصوت متقطع أثار داخلها الرهبة قبل أن يفصح عن هويته وقال:- صفية، أنا حسين زوجك.

سقط الهاتف من بين يديها، وقبل أن يصل للأرض كانت قد سبقته فاقدة الوعي.

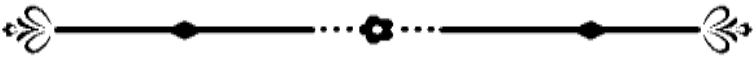

الدليل الثاني عشر

"خـــوف"

انقبض صدر سارة وغاصت في دوامة لا قرار لها، الخوف التهمها، أحكم عليها قبضته وجعلها تسير على خيط رفيع بين هاوية لا نهاية لها وحافة تحاول التشبث بها بكل قوتها، بات عقلها كمن يغرق وسط محيط من الأفكار السوداوية، لا منقذ، لا أمل يمد يده إليها، سوى ظلال متلاشية لمروان الذي كان ذات يوم ملاذها الآمن، أما الآن فهو وهم غائب، ذكرى عالقة في متاهة من غبار وذكريات هشة.

توالت الساعات ثقيلة، تلتهم لحظاتها بين أركان الغرفة؛ فتحركت من مكانها، دفعت وجهها ببضع قطرات من الماء، لعلها تستعيد بعض التركيز، أدارت عينيها سريعا في الغرفة، كمن يبحث عن شيء لا يعرفه انطلقت نحو جهازها لتلتقط الفلاشة التي تروي بعضًا من حكايات مروان تضعها بين يديها بتوتر، شعرت بلهب الأسئلة يلتهم عقلها، هل تتخلص منها لتنجو أم تبقيها وتواصل البحث عن الحقيقة مهما كلفها الأمر

استجمعت أنفاسها واتخذت قرارها أخيرًا، لن تتراجع، لن تدع الخوف يقيدها، بداخلها قوة مبهمة، دفينة، قررت مواجهة هذا اللغز، مهما كان مظلمًا، توجهت إلى غرفتها وبدأت تحزم بعض الأغراض، كأنها محاربة تستعد لمعركتها الأخيرة، وأثناء ذلك لمعت في ذهنها صورة حمدي ووعده

بإعطائها تفاصيل خفية عن الجريمة، أسرعت تبحث عن هاتفها لم يكن إلا ملقى على الأرض، مغلقا، كأنما يكمل سلسلة تآمر الأحداث ضدها، لكنها لم تعد ترى في كل هذا إلا وقودًا لثأر قادم، عزمت أن تخوضه حتى النهاية.

أعادت تشغيله، وما إن فعلت حتى ورد لها رسالة من حمدي، فتحتها؛ فوجدت تسجيلًا صوتيًا، ضغطت على زر التشغيل لتستمع لصوته المرتعش وأنفاسه المتقطعة وهو يتحدث بنبرة سريعة قائلًا:

لقد اكتشفت السبب وراء ما يحدث، أنا الآن في الطريق إليكِ، لقد ترجلت من سيارة الأجرة، أشعر بالخوف وأعتقد أن هناك من يتبعني، لقد اكتشفت تورط المشفى في عمليات غريبة وجميعها شملت التقارير الخاصة بجريمة القتل نفسها المتهم فيها مروان، عليكِ أن تكوني حذرة وإن لم أستطع الوصول إليكِ، غادري فورًا ولا تعودي إلى هنا. توقف الصوت لثوانٍ معدودة، ثم عاد مرة أخرى وهو يتحدث: أرى شخصًا يقف في نهاية الطريق.. من هذا! سأحاول طلب المساعدة منه.

ظل التسجيل مفتوحًا حتى استمعت إلى صوت صراخاته، وهو يستغيث بأحدهم لمساعدته حتى انتهى الصوت وما عادت تسمع شيئًا.

....

مرّت غمامة تلك الليلة تاركة خلفها الكثير من الأسرار التي بدأ ينكشف عنها الستار.. وشخوص بعضهم أسقط قناعه والآخر سقط ضحية في سبيل ما يبحث عنه.

في صباح هذا اليوم ارتدى الجميع أقنعتهم وأخذوا يمارسون حيلهم الحياتية، في تلك الأثناء وقفت سيارة أمام باب المشفى، لم يترجل صاحبها فور توقفه، كأنه ينتظر أن يأتي أحدهم ويفتح له باب مسرحه الجديد، يرى الجميع من خلف زجاج السيارة القاتم، يبتسم بشكل غريب ترجل من السيارة رجل يرتدي بذلة أنيقة، أخذ يهندم رابطة عنقه التي بدت متحجرة كملامحه الشاحبة.

دلف إلى داخل المشفى، خطواته جذبت انتباه الجميع، لم يصدق أحد ما يشاهدونه، عجزوا عن التفوه بكلمة وكأنهم ابتلعوا ألسنتهم، فقد كان هذا الغريب بالنسبة لهم هو الدكتور حمدي نفسه، الشخصية السمجة التي تحتفظ بوقارها الخجول وارتباكه الذي يعلمه الجميع عنه، في تلك اللحظة كان عزيز يقف يراقب ما يحدث ران على ملامحه ابتسامة عريضة، ثم استمع لصوت رنين هاتفه، أجاب والابتسامة ما زالت ترسو بين ثغره قائلًا: لقد تم كل شيء كما تريد.

وعلى الجانب الآخر يجيبه: عليك أن تجلب الدكتورة سارة لي، هناك سر خلفها، علينا أن نعلمه: أمرك سيدي، ستكون أمامك قريبًا.

لم يكن ظهور حمدي وحده هو الحدث المهيب؛ بل كانت سارة أيضًا تتأهب للغز آخر على وشك البروز أمامها؛ لتفيق على صوت خربشات سيزار، فتحت عينيها ببطء وقد أزعجها صوته، قامت وفتحت له باب الغرفة وما أن استعادت وعيها حتى عاد وقد قفز فوق قدميها، أخذت نفسًا عميقًا وراحت تربت على ضهره، حينها اتسخت يدها بمادة لزجة كانت ملتصقة على فروه، ازداد انتباهها؛ فهذه نفس المادة التي كانت عليه حين وجدته، نما داخلها شعور أن ما تبحث عنه أمامها لكنها عاجزة عن رؤيته، قررت التحرك سريعًا ولن تترك للمصادفة مجالًا كي تتلاعب بها مرة أخرى، توجهت إلى المشفى، ودلفت في سرعة دون الانتباه لما يصير من حولها، توجهت نحو المعمل، فتحت الباب فإذا بالجميع ينظرون إليها متعجبين من اندفاعها على غير المعتاد، وقفت أمامهم متحدثة بنبرة سريعة: دكتور حسام، أريد أن تساعدني في أمر عاجل.

- ما بكِ يا دكتورة؟! هل حدث شيء ما؟
- أريد منك تحليل تلك المادة، وبشكل سريع وسري
- سري! ماذا تقصدين؟!
- أرجوك يا دكتور، الأمر خاص وضروي، كما أريد خدمة أخرى.

نظرت له، وقد ازداد ترددها، راحت تتصبب عرقًا، ثم انتقلت ببصرها نحو سيزار فبادلها الدكتور حسام النظرات بعدم فهم، ثم أردفت قائلة: أريد تحليل دم لسيزار.

ابتسم ساخرًا ثمّ قال:- حتماً تمزحين يا دكتورة!
تحولت نظراتها إلى توسلات كادت تُبكيها، وهي ترجوه مرة أخرى.
- أرجوك هذا الأمر يعنيني كثيرًا، كما تتوقف عليه الكثير من الأمور.
نظر لها بعدم استيعاب، وعلى مضض وافق على الأمر.

....

استقر حمدي في مكتبه، وقف في منتصف الغرفة ينظر لها، كأنها المرة الأولى التي يدخلها، راح يفتش في أدراج المكتب والأجهزة الموجودة، طلب جميع الأوراق الخاصة به من عمليات التشريح التي أجراها في الآونة الأخيرة.
في تلك الأثناء كان الجميع يقفون في الخارج يتهامسون فيما بينهم بذلك التغيير الذي لمسوه فيه منذ أن وطأت قدماه المشفى هذا الصباح، أتاهم صوت عزيز وهو يصيح صارخًا: ما تلك الفوضى التي تفتعلونها، أنسيتم أننا في مشفى ولدينا واجبات علينا القيام بها؟
نظرن له بعض الممرضات وهن يرسمن علامات الدهشة على وجوهن وينقلن له ما حدث اليوم مع الدكتور حمدي، أمر عزيز الجميع بالذهاب إلى عملهم وعدم الالتفات لما يحدث، ثم توجه نحو غرفة حمدي ودون الطرق عليه، فتح الباب في سرعة قائلًا: أريدك في عمل هام.
استدار له مبتسمًا قائلًا:
تحت أمرك دكتور عزيز تفضل.

تقدم إليه وهو يحمل خلف كلماته خنجرً مسمومًا، يريد أن يتيقن من ولاء الخادم الجديد. فأردف قائلًا:

أراك اليوم في كامل نشاطك، أخبروني أنك كنت هنا ليلة أمس لوقت متأخر.

- هذا صحيح، كان هناك بعض الأعمال العالقة، وعليّ الانتهاء منها بسرعة.

حينها بدأ يلاحظ حبات العرق التي تتصبب من فوق جبين حمدي، مال برأسه وقال: - حمدي هل أنت بخير؟

لم يجبه؛ بل أومأ وقد لاح على ملامحه الشحوب، وبدأ يفك رابطة عنقه التي جعلته غير قادر على التنفس.

- هل تريد أن أستدعي قسم الطوارئ؟

ارتبك حمدي أكثر، ثم قام من مقعده متحدثًا ببعثرة كلمات غريبة وقال:- لا دكتور عزيز، ثوان وسأكون بخير، يبدو أنني مرهق من العمل لا أكثر.

قام حمدي وتوجه نحو غرفة تقع خلف المكتب وأغلق الباب خلفه مندفعًا متناسيًا عزيز وما رآه عندما بدأ وجهه في الانكماش فجأة.

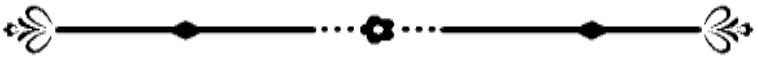

الدليل الثالث عشر

"كلما بعدت المسافات زادت الشكوك"

جلست سارة تتأمل باب المعمل بقلقٍ، منتظرة نتائج التحاليل التي ستكشف لها الحقيقة، كانت الساعة تقترب من منتصف الليل وصوت دقات قلبها يسبق كل عقرب، الألم يعتصرها كجرح غائر يزداد عمقا كلما مرت لحظة، قررت الذهاب لمكتب حمدي الذي تلاشت مكالمته من ذاكرتها والتسجيل الصوتي الذي تركه لها.

دفعت الباب بقوة، لتنفتح أمامها الغرفة الفارغة كمرآة لصمت مخيف، شعرت بوخزة الشك وهي تخرج هاتفها وتتصل به، بالكاد بدأ الهاتف يرن حتى خرج من غرفة جانبية بابتسامة باردة كالموت، اقتربت والكلمات تهرول من بين شفتيها: هل أنت بخير؟

رد عليها بصوت خالٍ من أي دفء: بخير دكتورة.. ماذا تريدين؟

أحست بغموض يلف المكان، شيء في نبرته تغير، وكأن من يقف أمامها مجرد قناع لحمدي الذي تعرفه، جلست أمامه محاوِلةً استدراجه، إلا أن نظراته المراوغة وكلماته الحادة كانت تقطع أي محاولة منها للوصول إلى الحقيقة، وبينما هو يحاول فتح حاسوبه، لاحظت تكرار محاولاته الفاشلة، ليغلقه بغضب كاد يكسر الجهاز.

رأت في عينيه انعكاسًا مريبًا، لحظة انقلبت مقلتيه لظلام حالك كليلٍ بلا قمر، ثم عادتا لحالتهما الطبيعية، هذا لم يكن حمدي، لكن كيف تخبر نفسها بذلك؟ صمتت متظاهرة بالتعب، لكن في داخلها مشاعر الخوف كانت تنسج خيوط من الشك تلتف حولها.

حاول تهدئتها بنبرة زائفة قائلًا:

دكتور زيدان أمرني بتقديم كل الملفات.. أنصحكِ يا دكتورة، ابتعدي عن هذه القضية؛ فهي معقدة، ولن تصلي لشيء.

ابتسمت بتكلفٍ، لكن داخلها كان يغلي، هاتفه رن فجأة، ابتعد عن الطاولة للإجابة؛ فوقع بصرها على سلسلة مفاتيحه المهملة على الطاولة، لم تعرف ما الذي دفعها، لكن يدها امتدت بخفة وأخذتها قبل أن يلاحظ، حين اقترب منها، نظر إليها ببرود قبل أن يسلمها ورقةً قائلًا: هذه استقالتك، لقد وافق عليها الدكتور زيدان، لم تعودي طبيبة هنا.

سكنت الشكوك داخلها أن من يقف أمامها ليس حمدي لكن يظل السؤال كيف!... قبضت على الورقة بقوة، ثم بسطت ابتسامة مستفزة وقالت: حسنا، تلك هي الورقة الأخيرة التي تقيدني بهذا المكان.

تقدمت نحو الباب، تشعر بثقل المفاتيح في حقيبتها، لكن مع ذلك، كانت تشعر بأنها اكتسبت خيطت يقودها نحو الحقيقة، وكأن صراعها مع هذا الوجه الغريب ما هو إلا بداية لكشف عالم مظلم يخبئ لها أسرارًا أكبر.

....

تجمعت دموع هدى وسط خوف متزايد، وهي جاثية قرب والدتها المغمى عليها إثر ارتطامها المفاجئ بالأرض، دعوات صامتة تتردد في داخلها بأن تفتح عينيها، أن تنبض بالسلام.

رن جرس الباب؛ فاندفعت لتفتح، وجدت أمامها فتاة عشرينية ترتدي زي التمريض؛ فتذكرت أن عزيز وعدها بإرسال ممرضة للعناية بوالدتها، استقبلتها بصمت متوتر، تبادلت معها بضع كلمات عن حالة والدتها المرضية، إحساسًا غريبًا راودها، خاصة بعد أن أومأت الممرضة برأسها دون كلام.

توجهت هدى للاتصال بعزيز، لكن هاتفه لم يجيب، لترمي جهازها بارتباك، وتطلب من الممرضة مرافقتها نحو الغرفة، وما أن فتحت الباب حتى توقفت أنفاسها، والدتها كانت واقفة على المقعد الخشبي، تمد يدها نحو حافة الخزانة بعينين شاردتين، وكأنها تفتش عن شيء غير مرئي.

....

عادت سارة إلى المعمل وهي محملة بالشكوك، تدرك أن لقاءها بحمدي لم يكن عابرًا؛ بل أشعل في نفسها يقينًا أنها تواجه لغزًا معقدًا ستكافح لحله.

خطت نحو مكتب الدكتور حسام على أمل إيجاد خيط، لكنها لم تجده وما إن أطل الطبيب المناوب وسألها عما تحتاجه حتى لفت انتباهها مظروف وضع على طاولة حسام، كأنه ينتظرها، ترددت لحظات قبل أن تمتد يدها

إليه، تضعه في حقيبتها على عجل، وتأخذ معها سيزار، هاربة بخطوات سريعة، متفاديةً أي لقاء محتمل مع حمدي الذي ربما أدرك فقدان مفاتيحه.

خرجت من المستشفى على عجالة، ولكن في طريقها اصطدمت بالدكتور حسام، حاول إيقافها وظل يصيح باسمها، لكنها تجاهلته واستمرت في السير، فيما بقي هو خلفها يحدق بحيرة، متسائلًا بصوت منخفض: لماذا لم تنتظر التقرير؟ تخلى عن استفساراته وقرر العودة إلى المعمل لإطلاع الدكتور عزيز على تطور العينة التي كان يفحصها، إلا أن انفجارًا ضخما دوى في المكان قبل أن يصل، ناشرًا الفوضى في أرجاء المستشفى.

على الجانب الآخر، كان الدكتور عزيز في مكتبه، يقف بجانب حمدي، الذي بدا شاردًا وغير مكترث بوجوده، بادره عزيز بالسؤال عن حاله؛ فابتسم حمدي كمن يلتقي بصديق قديم، وأجاب بصوت واهن: بخير، لكني نسيت دوائي وهذا يسبب لي بعض التوتر، تظاهر عزيز بتصديقه وهو يجلس بجانبه مستفسرًا عن سلوك سارة قبل قليل، تجاهل حمدي استفساراته محاولًا كبح انفعالاته، بينما عاد عليه الإرهاق مجددًا، فأخذ نفسًا عميقًا باحثًا بنظراته عن نافذة لالتقاط أنفاسه.

وما إن همّ عزيز بمساعدته حتى شقّ صوت إنذار الحريق الأجواء، مما أثار الذعر في قلوب الجميع، وأطلق العنان للتساؤلات: ماذا حدث في المعمل؟

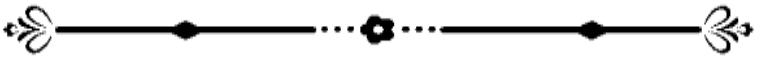

الدليل الرابع عشر

اعـتـــــراف

من خلف زجاج نافذة صغيرة تطل على نهر النيل، وقف الدكتور زيدان يراقب سيارة دفع رباعي تتوقف أسفل المبنى، ترجل منها رجلان، شعر بثقل اللحظة وهو يراقب خطواتهما تتسارع، وتنهد بعمق قائلًا: لقد حان الوقت.
عاد إلى الداخل، التقط هاتفه ووضعه على وضعية التسجيل، ثم جلس وبدأ يقول بصوت مختنق:
اليوم أدركت مكانتك الحقيقية في قلبي، شعرت بالرعب حين علمت أن القضية التي يعمل عليها مروان باتت تهدد حياتكِ أنتِ أيضًا لا أعلم إن كنت سأتمكن يومًا من إخبارك بكل شيء، لكنكِ كنتِ ابنة غالية عليّ، لم يكن بوسعي إلا أن أحاول حمايتكِ، الأمور تزداد تعقيدًا يا سارة، كأنها خيوط متشابكة إذا انقطع أحدها انفلتت جميعها، عدتُ بذاكرتي إلى العام الذي بدأ فيه مروان تحقيقاته حول اختفاء الأطفال من دور الرعاية وعودتهم بتصرفات مريبة، ومنذ ذلك الحين، لم تتوقف الحوادث الغريبة في تلك الدور.
لا أعرف مدى تورط مروان، لكن ما قام به أخذك معه إلى دائرة الخطر، انتبهي وحاولي الابتعاد قبل أن يكتشفوا أنكِ تعرفين الكثير.

ضغط زر الإرسال، ثم أخرج الشريحة من الهاتف، وقذف بها من النافذة. بعدها، غمر الهاتف في حوض السمك، وفي اللحظة ذاتها، اقتحم الرجال المنزل عليه، انقبض قلبه، لكنه لم يتراجع.

عادت سارة إلى شقتها، تلاحقها الأفكار كأنها أشباح تتسابق في ذهنها، رأت كل شيء حولها باهت، الأرض تحت قدميها تموج وكأنها تنذر بالانهيار، مر الوقت وهي شاردة تعيد أحداث الأيام السابقة كشريط سينمائي، حدقت في حقيبتها الملقاة وفي ملابسها التي لا تزال فوضوية، وراحت تحاول استعادة ما جرى الليلة الماضية، لكن الصور تتداخل ببعضها، تاركة في ذهنها لغزًا لم تتمكن من حله.

حاولت النهوض، لكنها شعرت بدوار مفاجئ؛ فاستندت إلى الحائط ثم جلست على المقعد واضعة يدها على رأسها، وبينما كانت تستعيد توازنها، سقطت عيناها على المظروف الذي يحتوي على نتائج

التحاليل، أخذت نفسًا عميقًا كمن يستعد للغوص في أعماق المجهول، فتحته وبدأت تقرأ النتائج بتأنٍ.

"المادة عبارة عن سائل لزج أزرق اللون يحتوي على خلايا حية بنسبة 90٪، وهي خلايا مجهولة لم يتم التعرف على أصلها، كما أظهرت التحاليل وجود نسب من الكربون بنسبة 5٪، والنيتروجين بنسبة 0.1٪، بالإضافة إلى أنسجة ضامة بكميات تفوق المعدلات الطبيعية الموجودة في الأنسجة البشرية أو الحيوانية، مما يشير إلى طبيعة غير متوقعة لتلك المادة"

أخذت نفسًا عميقًا؛ فالتحليل أكد لها صحة الشكوك التي تطاردها، باتت تواجه لغزًا أكبر مما تصورت، لغزًا له امتداد داخل حياتها وحياة مروان.

أمسكت بورقة التحليل بقوة، وكما فعلت مع الفلاشة من قبل، راحت تمزقها وأشعلت فيها النار، وكأنها تحاول دفن هذا السر للأبد.

وهي في وضعية الاستعداد الجديد وصل لها إشعار برسالة من دكتور زيدان، فتحتها وهي تعلم أن هناك كارثة على وشك الهبوط فوقها، وكما اعتقدت فقد استمعت لحديثه وبداخلها عزيمة أنها ستحاول هدم كل السدود التي ستواجهه للوصول إلى مروان وحل لغز قضيته.

....

انطلق صوت أجراس الإنذار يملأ أرجاء المستشفى، وانبعثت ألسنة اللهب من غرفة المعمل؛ فعمّ الذعر بين المرضى والزوار، واندفع رجال الأمن محاولين تهدئة الفوضى، هرع الدكتور عزيز والدكتور حمدي نحو الطابق الثالث، بينما أخذ الدكتور كارلوس يصدر تعليماته الصارمة للممرضين لتحضير غرف الطوارئ.

وقف عزيز مصدومًا أمام ألسنة النار التي التهمت جزءًا من الطابق وأصابت بعض العاملين، شعر بالذعر يحيط به، اقتربت منه إحدى الممرضات باضطراب قائلة:

- دكتور عزيز، هناك العديد من الإصابات!

لكنه لم يلتفت إليها، وانشغل بمحاولة الاتصال بالمسؤولين لإرسال المساعدات للسيطرة على الكارثة.

في تلك الأثناء كان حمدي يقف وسط الأدخنة، ثابت الجسد، وعيناه تنعكس فيهما ألسنة اللهب ببرود كأنه جزء من المشهد.
وبعيدًا عن الفوضى، ابتعد كارلوس بهدوء عن الجميع، ممسكًا بهاتفه ليجري مكالمة قصيرة، ثم همس بابتسامة مخيفة: لقد انتهى الأمر!
أنهى المكالمة واستدار ليجد عزيز يحدق به بملامح غاضبة، قال له بنبرة صارمة: أريدك في مكتبي فورًا.

....

في منزل صفية

طلبت صفية من ابنتها إحضار صندوق قديم من خزانتها، استجابت لطلبها وجلبته لتضعه أمامها بحذر، فتحته الصندوق؛ فتدفقت منه رائحة الزمن، عبقٌ مشبع بغبار ذكريات شبابها وزوجها الراحل حسين، انغمست في محتوياته، تبحث بعناية بين الأوراق كمن يفتش عن قطعة من روحه المفقودة، قطعت شرودها ابنتها هدى، التي سألت بفضول عما كانت تفعله، إلا أنها تجاهلت السؤال، وأمرتها بحزم أن تتركها بمفردها.
لم تطل هدى البقاء واستمعت لأوامرها، وبعد خروجها التقطت صفية الهاتف وأخذت تبحث وسط الأوراق القديمة عن نوتة صغيرة مخبأة وسط

ركام الأوراق، نفضت الغبار عنها، فتحتها بسرعة ودونت رقمًا على هاتفها وبدأت الاتصال، انتظرت حتى جاء الرد أخيرًا، صوت امرأة هادئ يخبرها: تم تحويلك إلى غرفة الإدارة.

تردد صدى الكلمات في رأسها، وتحولت يداها الباردتان إلى عرق، أخذت نفسًا متقطعًا قبل أن تتمتم بصوت خافت ومضطرب: يجب أن أراك الآن.

....

في المشفى، سادت الفوضى وامتدت النيران تلتهم الطوابق، مما اضطرهم لإخلاءه لحماية الأرواح، غطى السواد جدران الطابق الذي تحول إلى كابوس ضبابي، وأُرسل المرضى إلى مشافٍ مجاورة، دفع عزيز باب مكتبه بقوة، يتبعه كارلوس الذي ما أن دخل، حتى أمسكه من ياقة قميصه ودفعه نحو الجدار بغضب مكبوت، وصاح بنبرة تكاد تخنقها الغضب: هل فقدت عقلك؟ كيف تتصرف هكذا دون أن تعود إليّ؟

أجاب كارلوس ببرود مستفز: عن ماذا تتحدث، يا دكتور عزيز؟

رد عليه بنظرة نار وصرامة:

إياك أن تراوغ، أعرف تمامًا مع من كنت تتحدث!

وفي لحظة توتر مشدودة، رنّ هاتف كارلوس، تبادلا نظرات حذرة، ليشير كارلوس أن المكالمة لعزيز، أخذ الهاتف ونظر إلى الشاشة، تحول الغضب في عينيه إلى برود وهدوء مريب، وهمس بصوت خافت مطيع: تحت أمرك.

الدليل الخامس عشر

مجـهـــول

في لحظة مشحونة بالغموض والخوف، استجمعت سارة شجاعتها وقررت مواجهة المصير الذي يُطاردها كظل قاتم، بيد مرتجفة أمسكت بالمفاتيح، مصممةً على كسر القيود التي بدأت تخنقها انطلقت إلى منزل حمدي في سباق مع أفكارها المتضاربة، تستعيد تفاصيل حادثة الإسكندرية وأحداث الليلة الماضية، شكوك عميقة تعصف بها، هل هناك قوى غامضة تعمل خلف الستار؟

تجولت في الشقة، تراقب تفاصيل غريبة، مجسمات لهياكل عظمية، وأحدها لا يشبه في تفاصيله أي كائن بشري، أثار فضولها كتمثال من عوالم أخرى، وبينما هي كذلك، لمح بصرها ضوء أزرق يخرج من غرفة مغلقة، حملت بيدها إناءً فضيًا كسلاحٍ، وتسللت ببطء نحو مصدر الضوء، الذي انطفأ فجأة بمجرد اقترابها، انطلق ضجيج غريب أشبه بصوت رنين مغناطيسي، مما جعلها تتراجع مذهولة، ثم اقتربت مجددًا لتكتشف صندوقًا معدنيًا يحتوي على عبوات زجاجية بسائل أزرق، مشابه للمادة التي وجدتها على جسد القتيلة.

ظلت تبحث في المكان حتى عثرت على مجموعة أوراق علمت من خلالها أن هناك سر يقع في الملف 505 والذي حمل الكثير من الصور والمعلومات الغامضة، كصور لمواقع صحروية خارج الحدود المصرية، وأخرى لمستشفيات في مصر وخارجها، والكثير من النتائج التي شملت معادلات نتائجة سلبية وضع حولها كلمة رسوب التجربة.

في تلك اللحظة، دوى جرس إنذار غامض، لم تعلم مصدره؛ فالتقطت الملف سريعًا وهرعت إلى الخارج، وحين عادت إلى منزلها، استقبلت مكالمة من رجل غريب يقدم نفسه على أنه شقيق القتيلة، ويملك دليلًا حاسمًا على تورط شخصيات مجهولة.

ترددت للحظة، لكنها لم تسمح للخوف بإيقافها؛ فحملت حقيبتها وتوجهت إلى الإسكندرية، مستعدة لكشف الحقيقة مهما كانت كلفتها.

....

داخل منزل صفية

كانت تتوارى عن العالم، تُثقل رأسها بتلك المكالمة التي استنزفت كل لحظة من مستقبل ابنتها وأحلامها، لماذا عادوا الآن؟ بعد كل تلك السنوات التي حاولت فيها الفرار من أشباح الماضي، يعودون ليهددوا سرها الأخطر، السر الذي ظل محبوسًا كحجرٍ ثقيل في صدرها منذ خمسة وعشرين عامًا، لم تكن مجرد معلمة تُعنى بالتربية؛ بل كانت تمتلك ماضٍ لا يجرؤ أحد على تخيله.

استيقظت من شرودها على طرقات خفيفة، كان وجه هدى ابنتها يظهر على الباب بابتسامة لطيفة، اعتادت أن ترى والدتها متماسكة قوية كالصخر، لكن اليوم كانت تجاعيد وجه صفية تعكس قصصًا لم ترو، جلست بجوارها، قبضت على يدها بهدوء كما لو كانت تبحث عن بقايا الطمأنينة، في محاولة صامتة لفهم ما يحدث، لم تُجب صفية وتملصت ابتسامتها الشاحبة أمام ثقل افكارها.

غادرت ابنتها الغرفة وتركتها في وحدتها القاسية، استمر الانتظار حتى دق جرس الباب، فتحت لتجد رجلًا غريبًا بدا عليه أنه يعرف المكان جيدًا من نظراته التي اقتحمت الشقة فور رؤيتها، سألته من يكون؟ فابتسم وقال: أريد مقابلة السيدة صفية.

تملّكها الحرج للحظة، ثم دعته للدخول، تجول الضيف بعينيه بين أرجاء المنزل كما لو كان ينقب عن بقايا ذكريات طمستها السنون،حتى قاطعته هدى مستفسرة: ما علاقتك بأمي؟

تجهم قليلًا ثم أجابها بنبرة مثقلة بالماضي: كنت صديقًا لوالدك منذ أيام الجامعة... وتعرفت على صفية عندما تزوجا.

ابتسمت هدى بخفة، لكن صفية قاطعت حديثهما بصوتٍ بارد من خلفها: هدى، يمكنك الذهاب الآن. أومأت لهما بلطف، وغادرت المنزل.

اتجهت صفية نحو ضيفها وقد أرهقتها السنين، صافحته بشيء من الجفاء، لكنه أمسك بيديها بثبات، قائلًا بنبرة ساخرة: ما زلتِ صارمة كما عهدتك، حتى في أوامرك لابنتك.

نظرت إليه بشراسة خفيفة وقالت: الزمن يتغير يا كامل، لكن الهوية تبقى.

تأملها لبرهة قبل أن يقول: مرت سنوات طويلة على آخر لقاء بيننا.

أجابت بحزم: كنت أتمنى ألا نلتقي مجددًا، لكن يبدو أنكم لم تيأسوا.

صمت للحظة، ثم تساءل بجدية: لماذا طلبتِ حضوري؟ أجابت وهي تحبس أنفاسها كمن يوشك على كشف جرحٍ غائر: لقد عاد حسين.

....

وصل القطار إلى الإسكندرية، استقلت سارة سيارة أجرة وألقت وجهتها للسائق، ثم استغرقها هاتفها حتى برز أمامها خبر في أحد المواقع، "حريق في مستشفى الأمل يؤدي لانفجار المعمل وسقوط ضحايا" شهقت واضعة يدها على فمها، شحب وجهها، التفت السائق قلقا: هل أنتِ بخير، سيدتي؟

أومأت بقلق، وعيناها تجوبان الطريق خلفها، شعرت بظل يلاحقها، أدركت أن اللعبة بدأت تأخذ منحى خطيرًا.

ترجلت عند المنزل، كان المكان معزولًا، تقف فيه ذكريات متنافرة بين الضحك والألم، قاطعها صوت عم إسماعيل الحارس، من خلفها، سألته فورًا: هل عاد مروان هنا مؤخرًا؟

أومأ قائلًا: نعم، جاء منذ فترة، استبدل كالون الباب، وأوصاني بألا يدخل أحد.

تسارعت نبضاتها، دفعت الباب، ولم يتحرك، أخرج الرجل مفتاحًا وفتح لها، وما إن دلفت حتى باغتتها رائحة خانقة.

فتحت النوافذ بانفعال، واستدارت بحدة للعم إسماعيل: كيف تترك المكان بهذا الحال؟

رد بارتباك: أمرني السيد مروان ألا أدخل.

أخرجت بعض المال، وأعطته لائحة حاجيات كي يجلبها ثم طالبته بإغلاق البوابة خلفه.

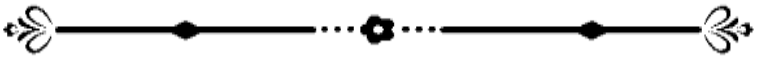

الدليل السادس عشر

"إذا أردت مواجهة الأسد، تحمل ألم قضمته"

وقف كامل أمام النافذة، ينفث دخان سيجاره في هدوء قاتم، تتقافز أشباح الماضي بين السحب الرمادية أمامه، لتصطف كلوحة من صور بائسة تهدد بعودة ما دُفن.

لم تكن صفية بعيدة، تقدمت نحوه بخطوات هادئة، تحاول أن تلتقط ملامح الماضي، لكنها لم تجد فيه شيئًا يستحق العناء، فقط وجهه البارد، وتفاصيله التي امتزجت بدخان السيجار، كجزء لا ينفصل عن ضباب المكان.

استدار إليها ببطء، وبنظرة مشحونة بالمعاني المخفية قال بصوت عميق: هل اشتقتِ إليه؟

ابتسمت بسخرية مريرة، وقالت بإزدراء:

الزمن لعب بعقلك يا كامل، نعلم جيدًا أنه ليس حسين، لكن هذا يثير فضولي... هل وجدتم العنصر؟

أومأ برأسه، ثم أجاب بحذرة:

لا يا صفية... الأمر ما زال في مرحلة التجارب.

أغمضت عينيها بارتياح، وقد ارتسمت على ملامحها سعادة خفية؛ فهي تعلم أن "الهجين" لا يزال بعيد المنال، جلست بتثاقل، ناظرة إليه وبسؤال أثقل صدرها منذ زمن قالت: ماذا تريدون مني؟ لماذا عدتم يا كامل؟

اقترب منها بعيون باردة، ورد بحدة: لا تنسي أنكِ قطعة في هذه اللعبة، وكان بين يديك كل جنودنا.

نظرت إليه بمرارة، وقالت: تركتُ لكم كل شيء، لم أعد نافعة لكم.

تقدم خطوة للأمام، مسترجعًا قسوة الذكريات، مسك ذراعها وكأنها قطعة باردة من حجارة الماضي، وهمس بصلابة: ليس عليكِ سوى الانصياع كما كنتِ، وإلا...

تحركت عيناه ببطء إلى صورة ابنتها الموضوعة على الطاولة، للحظة اجتاح قلبها خوف قديم، وتدافعت نبضاتها كأنها تهرب من قدر محتوم، حاولت الهرب من قبضته، تتوسل بعيونها أن يعفيها من هذا الحمل، لكنه كان بلا رحمة، أحكم قبضته عليها، وذكرها بصوت جاف: لا تظني أنكِ ستنجين من ماضٍ كنتِ جزءًا منه، لعبتِ اللعبة ودفعنا الثمن لحمايتك، فلا تأتي اليوم وتتظاهري ببراءة لا تليق بكِ.

جففت دموعها بخفة، تقدمت نحوه، خطواتها مترنحة كأنها تائهة كادت تتعثر لولا أنه أمسكها بثبات، رفع وجهها لينظر في عينيها التي لم تفقد بريقهما الآسر، وقال بصوت لم يخلو من السحر الذي طالما أسر قلبها: ما زالت عيناك تسحرني يا صفية.

ابتعدت عنه ببطء، وسحبت يدها بحدة، قائلة بصوت مختنق: أخبرهم أن يتركوني وشأني يا كامل، لم أعد أملك شيئًا يحتاجونه.

قال ببرود: سأفعل...

ثم صمت هنيهة واستطرد قوله: لكن هناك شيء يريدون معرفته أولًا، إنهم يبحثون عن العنصر المفقود، وهناك دلائل تشير إلى أنه كان ضمن مؤسستكِ قبل إغلاقها.

هزت رأسها باندفاع، وقالت بحماس مصطنع:

هذا مستحيل، جميع الأطفال تم فحصهم وتحليل حالتهم، الكثير منهم راحوا ضحايا تجاربكم، ومن تبقى تم التخلص منهم بعد فشل المشروع، والتقارير موجودة في المشفى، يمكنك التأكد منها

هز رأسه ببطء وقال:

أعلم... لكن هناك بعض الأطفال لم تُدرج أسماؤهم، وقد قضوا سنواتهم في المؤسسة بعيدًا عن أعيننا.

تلبسها الخوف فجأة، غمرتها لحظة صمت قبل أن تتحدث بصوت مهتز: لم يكن هناك سوى مائة طفل في الجناح الشمالي، وتحت إشراف الإدارة، لم يقترب منهم أحد.

ابتسم بسخرية، وعيونه تكشف عما كانت تخشى أن يكشفه، اقترب منها بهدوء قاتل، وقال: هذا هو من يبحثون عنه يا صفية، أريد قائمة بأسماء هؤلاء الأطفال، لا أحد يعرفهم سواكِ.

داخلها صوت صغير يخبرها أن هناك أمرًا أخطر مما يقول، وأن حياتها أصبحت تحت رحمة أسرار طمستها بيديها وبينما كانت تستعد لتفاوضه، قطع حديثها بسؤال مفاجئ، ضاربًا أعماق قلبها بخنجر الذكريات: هل ما زلتِ تتبعين أخبار عائلة عبد الحميد؟

شعرت بغصة خانقة، نبض قلبها بعنف كأنها على وشك الذبحة؛ فكل خطوة في حياتها مراقبة، وكل سر في ماضيها مهدد بالكشف، تقدمت نحوه محاولة تحويل الحديث، وسألت بتهكم ساخر:

هل ما زلت تغار منه؟

ابتسم بسخرية لاذعة، وقال: أغار من شخص ميت؟

كما هو غصة في حلقك، أصبح ابنه غير الشرعي غصة لكِ.

ابتعد عنها وهو يتحدث وقال: أريد ردك سريعًا؛ فعودتهم تعني أنهم اقتربوا أكثر مما تظنين.

ثم أخرج فلاشة من جيبه، وضعها أمامها قائلًا:

هنا كل ما تحتاجينه لتتبعي آثارهم، لا أريد أن أفقدكِ ثانيةً.

ثم رحل، تاركًا إياها غارقة في دوامة من التوجس، تيار بارد التفت حول قلبها كخنجر مغروس في الظلام، حاولت النهوض، تترنح، ليشد أحدهم على ذراعها فجأة، ظنت أنه قد عاد، استدارت، لتجد شابًا أمامها، وملامحها ترتجف لتردد بخوف: حسين!

....

بدأت سارة تتنقل في المنزل بخطوات حذرة، تتبع أثر الرائحة الكريهة التي تفوح في الأرجاء، فتحت النوافذ بارتباك لتدع الضوء يشق عتمة المكان، بقايا طعام متعفن كانت متناثرة على الفراش، وفأس مطمور بالطين ملقى على الأرض بجوار أكياس بلاستيكية، وضعت يدها على أنفها وتراجعت، قلبها ينبض بقوة، لتدرك أنها على وشك كشف سر دفين تركه مروان خلفه. توقفت، تأملت الفوضى حولها، تساءلت بصمت: لماذا غيّر كالون المنزل؟ هل كان يخطط للعودة؟ أم أن الأمور أفلتت من يديه حتى اختفى؟

عادت إلى الغرفة، حدقت في الفأس، بقايا طين متيبس عليه... حركت عقلها بسرعة واتجهت نحو الحديقة حاملة الفأس، هناك بدأت الحفر بجنون، تتعثر، تعب يزحف إلى عضلاتها، ألقت الفأس أرضًا، لتجد جرحًا صغيرًا قد شق كفها.

جلست متعبة، تتكئ بظهرها على شجرة، محاولة استجماع أنفاسها، بعد لحظات من الاسترخاء، حاولت النهوض، غرست كفيها في الطين، لتفاجأ به لينا، كأن أحدهم حرثه حديثًا، شعور غريب اجتاحها؛ فبدأت تحفر بيديها، ارتطمت بكتلة صلبة، تجمدت قليلًا ثم جلبت الفأس، وضربت الطين بقوة حتى كشفته... كان صندوقًا من النحاس، مغبرًا وكأنه يحمل أسرارًا عتيقة.

حملته بثقل، وعادت به إلى الداخل، أسندته على الأرض، نظرتها مترقبة، يديها ترتجفان ببطء، تشعر كأنها على حافة سر مفزع...

وفي تلك الآثناء طرق العم إسماعيل الباب، فتحت وسمحت له بالدخول ليضع كومة الأكياس على الطاولة ثم يغادر دون أن ينطق بكلمة، أغلقت الباب خلفه، أطفأت الأنوار، وأسدلت الستائر.

ولجت إلى الغرفة، وضعت مصباحًا صغيرًا بجانب الفراش بعد أن أظلمت المكان، ثم جلست أمام الصندوق بحذر، تفرغ محتوياته ببطء، يداها ترتجفان وقلبها يختلج بين أسئلتها وذعرها.

أخرجت حقيبة قماشية وملفات بدت قديمة حدقت فيها بنظرة حائرة، وكأن كل ورقة ستفتح بابا إلى عالم مريب.

مرّت دقائق ثقيلة وهي تتنفس بعمق، تستجمع شجاعتها، فتحت الملفات واحدة تلو الأخرى، وجدت بينها الملف الذي رأته سابقًا في شقة حمدي، لكن هذه المرة احتوى على نتائج تحاليل لأطفال ونساء، وصور صادمة... صور تجمع الدكتور زيدان مع شخصيات أجنبية، وصورة أخرى لأمها وسط أطباء غرباء، مشاهد مفجعة لرضع يضعون أقنعة تنفس، وآخرون كانوا كأشباح بلا حياة.

قشعريرة اجتاحت جسدها، ارتبكت نظراتها، تتساءل في ذهول: كيف انغمست والدتها داخل هذا اللغز؟ وما سر تلك التجارب الخفية؟

وقعت يدها على رسالة، موجهة إلى "نهاد"، اسم والدتها! كان الصراع يمزقها، لكن قبل أن تبدأ بقراءتها، اهتز هاتفها فجأة، لم تعبأ به، لكن الرنين

أصر ليجبرها على الإجابة، جاءها صوتٌ غليظ من الطرف الآخر: أريد ما تركه لكِ مروان، أعلم عن الفلاشة.

تجمدت في مكانها، وضاقت أنفاسها، بصوت مضطرب، صرخت: من أنت؟ عن أي فلاشة تتحدث؟

جاءها الرد بنبرة أكثر قسوة:

لا وقت للمراوغة، إن أردتِ رؤية صديقكِ حيًا مرة أخرى، عليكِ أن تجلبي لنا ما تركه... سأهاتفك مجددًا.

انقطع الاتصال قبل أن تكمل استيعاب ما حدث، ألقت الهاتف من يدها، وبدأت تجوب الغرفة بخطوات مرتبكة، تهمس بغضب مكتوم: يجب أن أكتشف السر قبل أن يصلوا إليّ.

عادت إلى الصندوق، تناولت الرسالة بين أصابعها، قرأت:

"عزيزتي نهاد، ربما تكون هذه رسالتي الأخيرة لكِ، أعلم بما تمرين به، وأعرف عجزك عن المواجهة، لقد أخبرته صديق بقدومك خلال أيام، سيكون في استقبالك وحمايتك، أريدك أن تتوخي الحذر؛ فالوضع يزداد خطورة بعد علمهم بهروبك، سأتغيب عنك قليلًا حتى أرتب طريقة آمنة لرحيلك إلى القاهرة، لا تقلقي صديقي مختار عبد الوهاب سيتولى كل ما تحتاجينه".

تجمدت ملامحها بينما تسقط الرسالة من بين يديها، دقات قلبها تتسارع كطبلٍ يعصف بصدرها، جسدها يشتعل رعشة، والعرق يتصبب من جبينها كأنها تحت سيلٍ هادر، صوتٍ مختنق، خرجت منها كلمةً واحدة، وكأنها تكسر الصمت الثقيل "أبي!

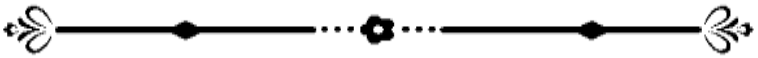

الدليل السابع عشر

اللـعبة

بعد صراعًا مريرًا مع النيران، هدأت أرجاء المشفى مؤقتًا، ولكن سحابة من الاضطراب والخوف ظلت معلقة في الأجواء، الجميع منهكون، بعضهم يحاول كبح فضوله حول ما حدث في الطابق الثالث، بينما يغرق آخرون في همساتٍ متوترة عن انهيار النظام بعد رحيل الدكتور زيدان.

ذهبت أحدى العاملات نحو غرفة الدكتور حمدي، طرقت الباب على عجل قبل أن تدخل، لم تجده؛ فأسرعت في البدء بعملية التنظيف قبل عودته، لكنها لم تكد تتحرك خطوات قليلة حتى تصلب جسدها، وانفجرت منها صرخة حادة ملأت جنبات المشفى.

اندفعت الممرضة مذعورة، لتجد زملاءها يتدافعون حولها بوجوهٍ تتراكم فيها القلق، وضعت يدها على وجهها، وكأنها تحاول إخفاء رعب لا يحتمل، ثم قالت بصوتٍ مختنق: هناك جثة في مكتب الدكتور حمدي!

تسابق الجميع نحو الغرفة، يتزاحمون بفضولٍ وحيرةٍ ممزوجة بالفزع، وجدوا جثة غريبة ملقاة بين ثلاجات الموتى، وكأن القدر يخطط بعبثية ليضع الموت في معقلٍ كان مخصصًا له، وبينما تصاعدت الفوضى وتفاقمت الأصوات، شق الدكتور كارلوس طريقه إلى الأمام، بسط كفيه في الهواء، آمرًا

الحراس بإخلاء الغرفة فورًا، ثم قال بصوتٍ قاطع: أحضروا أشرطة المراقبة فورًا!

اقترب من الجثة، لكن وجهها كان مشوها بصورة مقززة، مشهد يشعل فضوله المهني ويمزجها برعب دفين، فقد كان الجسد متصلبًا، منحنيًا كالجنين، وكأن أحدهم دق أضلاعه لتنكسر وتتقوس على نفسها، تراجع كارلوس خطوة، ثم شعر بشيء تحت قدميه، التقطه ليقرأ اسم "الدكتور حمدي" مكتوب على البطاقة الملتصقة بالملابس المبعثرة.

بصوت صارم، أمر الجميع بالخروج عدا الممرضة التي اكتشفت الجثة، لكن بين الحضور، التقط كارلوس نظرة خاطفة لوجه ممرضة أخرى، كانت تراقب المشهد بصمتٍ يكسوه خوف، وكأن الرعب المنبعث منها عرف طريقه إليه، هو الرجل الذي يشم رائحة الخوف كما لو كانت عطرًا ثقيلًا، اقترب منها ببطء، همس بصوتٍ هادئ دون أن يلمسها ليكسر ارتعاشها:

هل أنتِ بخير؟

كانت ترتجف وتكاد تبتلع كلماتها، لكنها تمالكت نفسها لتقول بصوتٍ مختنق: نعم... لا... في الحقيقة، هناك أمر يجب أن أخبرك به.

أمر كارلوس الحراس بإغلاق الغرفة، ثم اتبعته إلى غرفة مكتبه، أغلق خلفهم الستائر بإحكام، وانعزل الاثنان عن الضجيج في الخارج، جلست الممرضة بارتباك، نظراتها متوجسة مما يحدث، حثها بهدوءٍ على الحديث؛

فبدأت بصوتٍ متلعثم: رأيت الدكتور حمدي أثناء الحريق، لم يكن طبيعيًا، وجهه شاحب ونظراته باردة... عيناه...

توقفت فجأة، وكأن الكلمات قد تخثرت في حلقها، ثم انفجرت بالبكاء، منحها منديلًا وكوب من الماء ليعيد لها توازنها قائلًت:

أكملي.

تابعت بارتباك:

ليلة البارحة، رأيته يتسلل إلى غرفة الدكتور زيدان، كان يتحرك بارتباك، خطواته غير متزنة... ظننته مخمورًا، ثم رأيته يُخرج زجاجة صغيرة من جيبه؛ فسقطت من يده وارتجف، عاد واقفًا وكأن شيئًا لم يحدث... ولكن فعل شيئًا مرعبًا.

نظر إليها كارلوس بتركيز، وقال: ماذا فعل؟

صوتها ارتعش وهي تتابع: كان يشم أبواب الغرف، كأنه يتتبع رائحة، للحظة شعرت بأنه سيكتشفني ويهاجمني.

اقترب كارلوس منها، وضع يده على يدها برفق، وابتسم بسخرية خفية: كل ما قلته يبقى بيننا، ولا تخبري أحدًا، إن أثرت الشبهات حول الدكتور حمدي، سيعود ذلك عليكِ بالضرر، تذكري، لا دليل لدينا.

أخذت خطوة إلى الخلف، وجسدها يرتجف: لكنه لم يكن طبيعيًا

ضغط كارلوس على يدها وابتسامته الهادئة لم تفارق وجهه، ثم قال بصوت مخنوق بالتهديد: الحديث في مثل هذه الأمور قد يجعل منكِ الشاهد الوحيد... فكوني حذرة.

اندفعت مبتعدة عنه، وأسرعت لتقول: لن أخبر أحدًا... أعدك.

وقف بهدوء وعاد خلف مكتبه وبلا أي نظرة إليها، أشار لها بالرحيل، انتظر حتى أغلقت الباب خلفها، ثم التقط هاتفه وقال بنبرة غامضة: عليّ أن أقابلك في أقرب وقت.

سقطت الرسالة من يد سارة، كما لو كانت قد فقدت توازنها في عالم ينهار من حولها، شعرت برأسها فارغًا، والألم يكاد يبتلعها.

لم تكد تستوعب ما يحدث، العتمة حولها غلفت المكان وكأنها اجتاحت كل شيء، حتى الألوان اختفت من عينيها، كل شيء أصبح قاتمًا، بدأ الاختناق يتسرب إلى صدرها، فتحت شفتاها لتمتص هواءً لا يكاد يكفي، تراجعت ببطء، ثم جلست على الفراش، عينيها تتابعان كومة الأوراق المبعثرة على الأرض، تدافعت أفكارها ما بين إنهاء كل شيء والتمرد على الواقع الذي فرض نفسه عليها، لكن قبل أن تُنهي تفكيرها، طوت الرسالة ووضعَتها داخل حقيبتها، تناولت المفكرة بين يديها، وعينيها تتنقلان بين السطور، وكأنها تفتح بابًا جديدًا يأخذها إلى خوفٍ أكبر، يطاردها من جديد.

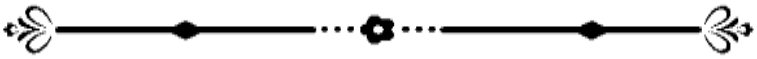

قبل خمس وعشرون عامًا

بعد رحلة الوفد الطبي من مدينة تكساس، كان العالم كله يتحدث عن "زيدان علوان" الطبيب المصري الذي أثار إعجاب الجميع بتجاربه الطبية الفريدة، بدأت أنظار الناس تتجه إليه بعد أن نال دعمًا غير مسبوق من المنظمات الدولية، حتى تم دعوته للعمل في المشفى الذي كنت أعمل فيه، كان وسيمًا وحضوره طاغيًا، لكن ما جذبني إليه أكثر من كل شيء نظراته التي أثارت في قلبي شيئًا من الفتنة والدهشة، منذ اللحظة الأولى، شعرت بشيء غريب، كأنني أصبحت جزءًا من عالمه، وعندما بدأ يبادلني نفس الشعور، كان ذلك بداية لرحلة طويلة من الإغراء المتبادل.

في العام الأول تحت إشرافه، توطدت علاقتنا بشكل لم أكن أتوقعه. وعندما أعلنا علاقتنا للجميع، انتقل للعيش معي لنصنع معًا مستقبلًا مشتركًا، واتفقنا على الزواج بعد عودتنا إلى مصر ولكن في تلك الفترة، تغيرت الأمور؛ فزيدان كان غارقًا في عمله، وتغيرت ملامح العلاقة بيننا، حاولت معرفة طبيعة البحث الذي كان يعمل عليه، لكنه انفجر في وجهي بغضب لم أعهده، ما أثار الجدل بيننا ثم عاد بعد أيام،

والدموع تملأ عينيه، يبرر لي أنه مجبر على إنهاء هذا البحث أو سيتعرض مستقبله الطبي للخطر.

في ليلة شتاءٍ باردة، طرق باب غرفتي، جلس بجانبي على الفراش وأخبرني عن سفره إلى مركز الأبحاث في مدينة هيوستن، كان الأمر يبدو عاديًا، لكنه ترك في نفسي شعورًا غريبًا، كأنه يختفي عني لأمر ما قبل أن يغادر، طلب مني الاهتمام بحالة طارئة، امرأة على وشك الولادة، كانت حالة نادرة لا نراها كثيرًا؛ امرأة مسنة، تعاني من الزهايمر، تحمل في أحشائها طفلًا!

لم تكن تذكر كيف حدث الحمل أو من هو والد الطفل، الأمر يحيطه الغموض، اهتممت بها رغم أنني كنت أشعر بقلقٍ غريب تجاه حالتها، حتى جاء المتدرب المصري، شاب من فريق التدريب الطبي الذي وصل حديثًا من القاهرة، لغته الألمانية ضعيفة، لكنه وجد له مكانة لدى الجميع، وخاصة عند زيدان الذي جعله مساعده المقرب.

في تلك الليلة، كان الصراخ المتناثر من غرفة المريضة ينذر بكارثة، اكتشفنا بسرعة أن المرأة تعاني من انسداد في المشيمة، والطفل يكاد يختنق، دون أن أنطق بكلمة، اندفع الشاب الذي كان معي بأوامر حاسمة لفتح غرفة العمليات وبينما كنت أستعد، اكتشفت فجأة أنه تم نقلها إلى مكان آخر، تفاجئت بالغرفة التي كانت في الطابق الأرضي ولم أكن أعلم بوجودها، مزودة بتجهيزات وأجهزة طبية متطورة لم أرها من قبل.

دخلت الغرفة وتبعني الطبيب المساعد، مع بدء الولادة، بدأت الأجهزة تصدر أصواتًا غريبة، نبضات قلب المرأة تتسارع، ثم فجأة توقفت كل

الأجهزة، واختفت الحياة من جسدها، كانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها الموت بهذه الطريقة، حاول الطبيب المساعد إنهاء العملية بسرعة، وطلب مني أن أخرج، لكنه لم يكد ينتهي حتى اقتحم الغرفة رجلٌ يرتدي معطفًا أسود وقبعة تخفي ملامحه، اقتربت منه وطلبت منه مغادرة المكان فورًا، لكنه أوقفني بإشارة من يده قائلاً:

أين زيدان؟

لم يجب أحد؛ فخلع معطفه، واتجه إلى غرفة التعقيم، عاد بعد قليل مرتديًا بالطو العمليات، مما زاد من حيرتي وقلقي، حاولت منعه، لكن الشاب الذي كان معي حاول إيقافي، انتظرنا في زاوية الغرفة، بينما بدأ هو في استكمال الولادة، العجز تملكني وأنا جاهلة لما يحدث من حولي، لكن المشهد لم يخفف من صدمتي عندما حمل الطفل بين يدي، كان جسده ذو طبقة رقيقة بشكل مخيف، وعيناه تحملان لونًا أسودًا مرعبًا، دون أن يصدر عن الطفل أي صوت، فقط كانت عيناه تدوران بسرعة، وكأنهما تبحثان عن شيء ما.

وضع الطفل على السرير، ثم بدأت أسنانه تصطك وهو يمدد عظامه بالقوة، حتى سمعت صوتها وكأنها تنكسر، لم يصدر عن الطفل أي صرخة، فقط كان هناك أنينٌ متسلسل جعلني أغمض أذني خوفًا، كان رأسي يدور وعيني تغشيهما الرؤية، شعرت كأن الأرض تبتلعني، ثم سقطت فاقدة الوعي.

ظهرت هدى ابنة صفية وهي تحاول أن تجعل والدتها تفيق بعد أن عادت لتطمئن عليها، هكذا قلوب الأبناء عندما تعانق أرواحهم ذويهم، كانت السبب في بقاء صفية وحسين معًا؛ فهي الأمان الوحيد الذي جعلها تحيا مرة أخرى.

الدليل الثامن عشر

"إذا جثمَ الشيطان داخل عقولنا،
لن يبارحها حتى تصبح جنة أفكارنا جحيمًا"

أخذت سارة ترمي بكل شيء من حولها، كأن مسًا قد أصابها، عقلها بات كساحة هادئة في عمق عاصفة، تحملق في الدفتر بصراخ مكتوم: لا... خدعة! هناك من يرغب في الإيقاع بي كي يُصبيني بالجنون.

تتكرر الكلمات في عقلها كصدى عميق، تتساءل: كيف لأمي أن تتورط مع الدكتور زيدان؟

غموض يتربص بها في الظل، أسرار ترتعش داخل صفحات الدفتر تحمل خيوط منظمة سرية تغرس مخالبها في الحياة، تفتك بالأرواح.

تستسلم أخيرًا، تلتقط الدفتر كأنها تحمل جسدًا خاويًا، عينيها تجردانه من غباره، تفرد الصفحات كمن يكشف جثة مستورة، وفي تلك اللحظة، يخرج السر جلياً؛ فعادت إلى ساحة الأسرار لتستكمل الرحلة.

كشف سر زيدان

قبل عامين انقلبت حياتي حين أصبحت تحت رحمة الدكتور عزمي، الطبيب الغامض الذي اقتحم الغرفة في تلك الليلة، لم يكن مجرد طبيب، كان جلادًا وقاضيًا، يفرض قوانينه بحزم وقوة، الصمت أمني والطاعة قانوني، لكن فضولي كان سلاحًا خفيًا.

ذات يوم تأخر زيدان في العودة إلى المنزل، دخل مكتبه المحظور، وبعد ساعة خرج بحقيبة سوداء، تردد عند الباب، ألقى كلماته ببرود: سامحيني نهاد.

لكن ما كان ليغفر، فقد كانت ذنوبه أثقل من المغفرة، كنت أشعر بوجوده حتى في غيابه، وأراقب كل تحركاته بصمت قاتل، وفي لحظة ضعف سرقت ملفاته وعرفت الأسرار، كأن بوابة جهنم قد انفتحت عليّ، أسماء لنساء، ملفات طبية، عمليات إجهاض متكررة، جثث أرحام ممزقة وأمهات متناثرات في هوة الموت.

كانت الحقائق تنزف في ذهني، تلتهمني ببطء كجحيم مشتعل، حقائق قاتلة تلك التي تجبرك على حمل عبء الأسى إلى الأبد، حينما يكون الجلاد هو من وثقت به يومًا، تلك الخيانة التي لا شفاء لها.

لم تتوقف الملفات عند تلك الأسرار، فقد عثرت على شريط مسجل، قمت بنسخه بسرعة، وعندما استمعت إليه، ملأ أذني صوت بكاء نساء يتوسلن لإجهاضهن، يروين قصصًا عن رعب يعصف بهن منذ بداية حملهن، اعترفن بأن أزواجهن اختفوا منذ ثلاث سنوات أو أكثر، وبأنهن مررن بتجارب غريبة، علاقات مع غرباء لم تفهمها قلوبهن، بعضهن هرب، وأخريات أفصحن عن اختطاف غيّب وعيهن، وعندما أفقن وجدوا أنفسهن حوامل.

كانت تلك الحقائق كأقفاص من حديد، لا أستطيع الخروج منها ولا البقاء فيها، كنت أظن أنني سأحمي نفسي بهذه المعلومات، لكنني كنت مخطئة؛ فالقضايا أكثر عمقًا مما ظننت، اختفاءات ونساء ضُمنت ملفاتهن ضمن "المرضى النفسيين".

شهر مضى دون أن أسمع عن زيدان شيئًا، حتى جاءني خبر من إحدى الممرضات أنه غادر ألمانيا، دفنت نفسي بعيدًا عن كل شيء ينبض بالحياة، حتى فقدت الرغبة في مواصلة البحث عن الماضي الذي انطفأ برحيله.

وذات يوم وصلني طرد باسمه، صُدمت وأنا أقرأ رسالته، يحذرني فيها من خطر داهم في المستشفى، ويخبرني بأنه رحل لحمايتي، فتحت الصندوق؛ فإذا به سرير طفل رضيع! وضعت يدي على بطني المنتفخة بذهول، كيف عرف بأمري؟ رفعت عيني إلى الورقة التي عُلقت على السرير، مكتوب عليها: للابنة القادمة.

تجمدت الكلمات في فم سارة، وعيناها تتوهان في الفراغ، اجتاحتها الحقيقة كطوفان عارم، شعرت وكأن الأقنعة سقطت عن الوجوه، وكأنها عالقة في دوامة تعصف بكل يقين عرفته.

"أنا ابنة من؟ ولماذا أخفى عني هذا السر؟"

تذكرت نظرات زيدان الغامضة وحديثه المبهم عنها وعن والدتها، سالت دموعها بصمت، خانتها القوة؛ فسقطت على الأرض مستسلمة لحقيقة جردتها من نفسها.

لم تغب عن الوعي بقدر ما أصبحت في شدة انتباهها، الأمور تنكشف أمامها كقشرة تنشق ويبرز قُبح ما وراءها، ووسط سيلٍ من الأفكار المتصارعة والمشاهد المخيفة التي تحاصرها، شعرت بهزة خفيفة تحت قدميها، الأرضية الخشبية تئن كأنها تبوح بسر هي الأخرى، رفعت إحدى الألواح المتصدعة، لتجد أسفله صندوقا خشبيا قديمًا مغلقًا بقفل صدئ، وقد غطاه الغبار كأنه مدفون منذ الأزل، بذهول تسأل نفسها كيف بقي هنا كل هذا الوقت؟ عقد المنزل لا يتجاوز ثلاث سنوات!

ومع ذلك، كانت تعرف أن هذا الصندوق يحمل جوابًا منسيًا أو سرًا جديدًا على وشك أن يُفضح.

بغضب وإحباط ألقت بالصندوق بعيدًا، صارخةً: يكفي! لا أريد المزيد من الألغاز!

لكن فضولها لم يدعها تهرب؛ فاقتربت من النافذة محاولة تهدئة أفكارها التي تتصارع بلا توقف، وقفت تراقب سكون الليل، تستمع لنقيق الضفادع وهمس الرياح عبر أوراق الشجر، محاولةً التماسك.

لكن في زاوية عينيها، لمحت ظلًا غامضًا يتحرك بين عتمة الأشجار التي أخفت تفاصيله، يقترب ببطء، جسده الهزيل يتحرك بخطوات ثقيلة مستندًا إلى عصا، حاولت تمالك نفسها وقلبها يخفق، ظنت لوهلة أنه عم إسماعيل؛ فنادت عليه، لكن الصمت كان جوابه.

استدعت ما تبقى من قوتها؛ فلم تعيره اهتمام أكثر، أغلقت النافذة بقوة وبداخلها إصرارًا على أن تستكمل هذا الطريق.

عادت إلى الصندوق ثم وبحركة يائسة، ألقت به نحو الجدار، تحطم الصندوق وتناثرت أجزاؤه في أنحاء الغرفة.

بسرعة جمعت الأوراق المتناثرة، لكن ورقة واحدة استوقفتها، كانت شهادة ميلاد قديمة، كُتب فيها "مروان عبد الحميد الشاذلي، اسم الأم صفية"

لحظة الصدمة جعلتها ترتعش، ارتجفت يداها وهي تحمل الورقة، معلنة بداية سرٍ آخر أعمق، كان يقف بين الحقيقة والوهم، ليكشف لها عن جانب خفي من حياتها.

في منزل صفية

وقفت هدى في المطبخ تعد فنجان قهوتها، ظلت شاردة حتى انسكبت القهوة وأحدثت فوضى مكانها، نظرت لها غير مبالية بتلك النتيجة، فهي تشعر أن والدتها انسكب من داخلها الهدوء والراحة حتى أصبحت في حالة من الفوضى، أخذت تلملم المكان، تعيد ترتيبه، لكن ماذا ستفعل مع والدتها؟

ما إن انتهت حتى تذكرت اهتمام والدتها بمحتوى الصندوق، توجهت إلى الغرفة، اطمأنت أنها نائمة، حملت المقعد، صعدت فوقه، ثم حاولت جذب الصندوق، وضعته أرضًا، فتحته قليلًا، أصابعها كانت ترتجف خيفة؛ فتلك

المرة الأولى التي تقتحم فيها خصوصية والدتها، استحضرت بعضًا من القوة، ثم بدأت تعبث داخله، لم تجد سوى بعض الأوراق التي حملت اسم المؤسسة التعليمية الخاصة بوالدتها، بعض الصور الخاصة، وصورًا شخصية لها منذ كانت طفلة.

نظرت لواحدة منها لتجد صورة لرضيع تحمله والدتها، شردت فيها قليلًا، لمحت التاريخ المدون أسفل منها وفي الوقت ذاته شعرت بقبضة أمسكت بها من الخلف جعلتها تصيح فزعة.

....

على حافة صخرة في المقطم، تجمع بعض الشباب حول كومة من الحطب المشتعل، تحيطهم ألسنة اللهب ويتمايلون على وقع الموسيقى الصاخبة، الدخان الكثيف يخنق الأجواء ويعكر عقولهم، يتعانقون بترنحٍ، كأنهم هائمون بلا إدراك.

في تلك اللحظة، توقفت سيارة جيب قربهم، وترجل منها شاب ذو نظرة ثاقبة.

لمح أحدهم الشاب القادم؛ فترك رفيقته واندفع نحوه، تبادلا التحية بسرعة، ثم سلم الشاب كيسًا بلاستيكيًا، وتلقى بالمقابل المال قبل أن يعود إلى سيارته ويغادر تاركًا وراءه الغموض وهدير الليل.

عاد الشاب الآخر إلى المجموعة ليجد صديقته تلتف حوله متلهفة، وقالت بابتسامة ماكرة: ماذا أحضرت لنا هذه المرة؟

ابتسم بخبث وأجابها بصوت خافت:

جرعة جديدة ستأخذكم إلى عالم آخر تمامًا.

ردت عليه بضحكة خافتة وقالت: ألسنا دومًا في تلك العوالم؟

قال بنبرة واثقة: لا هذه المرة مختلفة، هذا السائل سيجعلنا أقوى... لا شيء سيقهرنا!

دعاهم جميعًا؛ فتجمعوا حوله بحماس، وأخرج زجاجات صغيرة تحتوي على سائل أزرق لامع، أمسك كل واحد منهم بزجاجة وشرعوا في الارتشاف، قطرات قليلة أضافوها إلى مشروباتهم قبل أن تبدأ النشوة في الاستحواذ على أجسادهم.

تصاعد إيقاع الرقص، انصهرت أجسادهم كأنها كتلة واحدة، يهزون رؤوسهم كدراويش في نشوة متصاعدة حتى انهار بعضهم مغشيًا عليه، وآخرون سقطوا يقيئون دمًا.

لم يبق سوى مينا وصديقته، يتمايلان كدمى تحركها خيوط خفية، حتى سالت دماء من أنفيهما وسقطا بلا حراك.

وفي زاوية مظلمة، كان الشاب الذي زودهم بالعقار يراقب المشهد بابتسامة خبيثة، ملامح الانتصار مرتسمة على وجهه، رفع هاتفه والتقط صورًا

للمشهد الفوضوي، ثم أرسلها مع رسالة إلى رقم غامض "تمت المهمة، العقار يتغلغل في دمائهم وبدأت عملية التحو

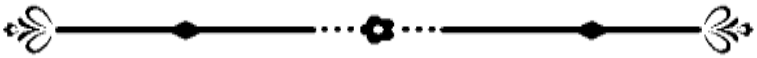

الدليل التاسع عشر

"التحــول"

شعرت سارة أن عقلها غارق في بحر من الحيرة والغموض، تتلاطم أمواجه لتجذبها نحو قاعٍ مظلم، أفكارها تتشابك حول عنقها، تقيد أنفاسها وتمنعها من رؤية النور، أكانت حياتها بأسرها محض وهم، مسرحية من الزيف، تُحيط بها أقنعة الأحياء الذين يجيدون إخفاء نواياهم؟!

أفلتت الأوراق من بين أصابعها دون شعور، لتسقط أرضًا برنة معدنية خافتة، رمقت الأسطوانة الرقمية التي تدحرجت على الأرض؛ فوجدت مكتوبًا عليها "دليل الحالة الأولى" مع شعار المستشفى في خلفيتها، تدافعت في ذهنها أسئلة لا حصر لها، شعرت بحاجتها الماسة لفهم ما يحدث، ولمَ تركت هنا كرسالة موجهة لها؟!

خطت بخطوات حذرة نحو الغرفة الأخرى، تبحث عن الكمبيوتر الذي عادة ما يتركه مروان في هذا المكان، قلبت الأثاث بعجلة حتى وجدته، حملت الجهاز بتوتر، وضعته على الطاولة، وشبكته بالقابس الكهربائي، نبضات قلبها تتسارع مع كل خطوة وكأنما كانت روحها تحترق شوقًا لمعرفة الحقيقة التي تلوح في الأفق المظلم.

ما إن بدأت بتشغيل الجهاز وأدخلت الأسطوانة حتى اخترق صمت الغرفة رنين هاتفها، تراجعت بجسدها نحو الخلف كمن يتلقى صدمة، ونظرت إلى الشاشة بعيون حائرة، كان الرقم مجهولًا، فتحت الخط برهبة، جاءها الصوت من الجانب الآخر هادئًا جادًا: دكتورة سارة مختار، معكِ صلاح سالم، النائب العام.

تجمدت للحظة، كلمات الرجل كأنها طيف يمر سريعًا، لم تستطع تصديق هويته، لكن اضطرابها دفعها للاستماع، طلب رؤيتها سرًا، تلك النبرة المغلفة بالغموض، زادت من توترها، كانت تتساءل في داخلها: هل هو صديق أم عدو؟ هل يشاركها في فك هذا اللغز أم يحاول إخفاء جزءٍ منه؟ فإما أن تغوص في هذا العالم المعتم حتى نهايته، أو تعلن هزيمتها وترحل.
أغلقت المكالمة، وكلماته الأخيرة تتردد في ذهنها كأصداء بعيدة، ذلك الاسم الذي ذكره النائب العام، نفس الاسم الذي ارتبط بدكتور زيدان، بات عقلها مسرحًا تتراقص فيه الأفكار المشوشة، مشهد من القلق والتساؤلات يكاد يبتلعها، لا تدري من تصدق، ولا كيف تتعامل مع كل تلك الأسرار التي بدأت تتكشف.
تأوهت، تحاول أن تتشبث ببعض من توازنها، لتستعيد نفسها وسط هذا الطوفان الذي يهدد بابتلاعها، حملقت في الأسطوانة التي باتت بين يديها كأنها جمرة، تتردد في لمسها وفي الوقت ذاته تعلم أنها لا تملك خيارًا سوى

المضي قدمًا حتى لو كان ذلك يعني مواجهتها لرعب قد لا تتمكن من تحمل تبعاته.

ضغطت زر التشغيل؛ لتنغمس في عالم من الصور الغريبة والمثيرة للحيرة، أربعون دقيقة تحملق داخل تلك الشاشة الصغيرة، يتجسد أمامها الرعب في أبغض صوره.

جليسة الموتى أصبحت الآن تخشى الأحياء، لقطات عرضها المشهد ليعلن عن وصول نوع جديد من الخوف، أخذ يتشبث بها حتى تركت الغرفة وهي تُسرع إلى الخارج، تحاول أن تلتقط أنفاسها الهاربة؛ فبعد ما رأته واستمعت له من المرأة التي ظهرت في الفيديو، أصبحت تدرك أنها لم تصل بعد لنهاية الطريق، وأن هناك أسرارًا أكبر تلتف حولها كدوامة لا ترحم، أهي مجرد البداية ودكتور زيدان هو المحرك الرئيسي لها أم أن هناك بيدقا آخر لم يظهر بعد؟

....

بدأت الخيوط تتشابك أمامها كسلسلة معقدة، الحقيقة تتسلل كالضوء، حاولت التخلص من كل شيء على الجهاز، حذفت الملفات واحدًا تلو الآخر، حتى اكتشفت أن حاوية الحذف ممتلئة، فتحتها بفضول، لتجد قائمة من الصور والمستندات، تم حذفها قبل اختفاء مروان بيومين، بدأت تتصفح الصور، وإذا بإحداها تشد انتباهها، صورة لوالدها، يقف بجوار امرأة حبلى،

يلف ذراعه حول خصرها بارتياح غريب، صورة كانت كلسعة حارقة، جمدت الدم في عروقها.

حدقت فيها مذهولة، الكلمات خانتها أمام ما ترى، اقتربت لتقرأ اللافتة المعلقة خلفهما وقد كتب عليها "حدود مدينة وهران" نظرت أسفل الصورة، وجدت اسم "سهيلة" وتاريخًا مدونًا، قبل ولادتها بأيام قليلة، من تكون سهيلة؟ وما علاقتها بوالدها؟

سخرت من نفسها قائلة: أبي... الكلمة التي أصبحت رمادًا، لم تعد تعني لي شيئًا، لا الألف التي كانت توحي بالثقة، ولا الباء التي جمعتني به يوم نطقته لأول مرة، ولا ياء المحبة التي ظننتها حقيقية.

استفاقت من شرودها على صوت الهاتف، نظرت إليه فرأت رقما غريبًا، حدثت نفسها بسخرية: مرة أخرى أرقام مجهولة.

أجابت بصوت متعب، لا يحوي سوى الرماد المتبقي من قوتها، ثم فجأة جاءها صوت الدكتور زيدان، انتفضت بداخلها مشاعر غليظة، استجمعت قوتها، وتمنت لو كان أمامها لتطلق نيران غضبها دون رحمة، لكنها سرعان ما استدعت هدوءًا زائفًا، وارتدت قناع اللطف، قائلة بلينٍ مختلق: كم أحتاج مساعدتك، دكتور زيدان.

كان يشعر يقينًا بأنها قد توصلت لجزء من الحقيقة، هو من حاك كل تلك الخيوط، أرادها أن تصل إلى هذه النقطة تحديدًا، لكنه استمر في لعبته،

متظاهرًا بحرصه على حمايتها، بكت أمامه عبر الهاتف، وجعلته يستشعر ألمها وارتباكها، كلما زاد تظاهرها بالحزن، ازداد يقينه بأنها بدأت تستوعب الحقيقة شيئًا فشيئًا؛ فهي ابنة نهاد، تلك المرأة التي لم تكسرها الأزمات رغم ما مرت به من عواصف.

لم تطل المكالمة بينهما، قطع الاتصال بعد وعده لها بالعودة ليكمل ما بدأه، ألقت الهاتف بعيدًا وكأنها تتخلص من شيء ثقيل، ملأها شعور عارم بالاشمئزاز، أدارت وجهها حين سمعت خطوات تقترب من الغرفة، انتفضت، نظرت حولها، بحثت عن أي شيء لتحتمي به، لكنها تذكرت أن الفأس تركته بالخارج، لمحت لوحًا خشبيًا بجانبها؛ فحملته بقوة ووقفت خلف الباب بترقب، ارتفع قلبها مع كل خطوة يقترب فيها الظل، وما أن تخطى عتبة الغرفة حتى أسقطت اللوح على رأسه، ليهوي مغشيًا عليه، تاركة نفسها في مواجهة جديدة مع ما تخبئه لها الأيام

في منزل صفية

شعرت هدى بقبضة قوية تمسكها من الخلف؛ فالتفتت لترى وجه والدتها وقد ارتسمت عليه ملامح جامدة، نظراتها تحمل توبيخًا حادًا، دون تردد انتزعت صفية الصندوق من يدها قائلة بحدة مكتومة:

كيف تجرؤين على العبث في أشيائي الخاصة؟

بدت هدى وكأنها مغروسة في الأرض، خجلها يجتاحها، ونظراتها تبحث عن الصفح، وضعت يدها على كتف والدتها، محاولة استرضائها بصوت يخالطه التردد:

أمي، سامحيني، لم أقصد اقتحام خصوصيتك، فقط شعرت بالخوف عليكِ، خشيت أن تكوني تخفين أمرًا خطيرًا، وأردت مساعدتك.

صمتت صفية، لمعة قهر في عينيها، ثم ابتعدت عنها وجثت على فراشها واضعة الصندوق إلى جانبها، وكأنها تريد أن تخفيه من جديد، وقالت بصوت خافت، يخفي وراءه جبالًا من الصراع:

ارحلي الآن يا هدى... أحتاج لبعض الوقت وحدي.

لكنها تقدمت خطوة، رفضت أن تُبعدها والدتها عن جدران السر الذي يثقل كاهلها، قالت بإصرار:

لن أذهب يا أمي حتى أفهم، منذ تلك المكالمة وحالك في تدهور، كأن شيئًا غير مفهوم يطاردك، أخبريني ما الذي يحدث؟

في لحظة، اشتعل الغضب في عيني صفية، صرخت بصوت مرتعش:

يكفي! لا أريد الحديث عن هذا، أنا متعبة، أرجوك اخرجي.

ابتعدت بنظراتها، لتغرق في صمتها، واحتشدت دموعها أمام ابنتها، كأنها تعبر عن سنوات من الحزن والألم المكبوت، لكنها اقتربت واحتضنتها بقوة، تربت على كتفيها بلطف، وكأنها تحاول إعادة الأمان لقلب منهك، تراجعت

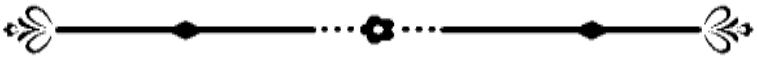

صفية قليلًا، جففت دموعها بأنامل مرتجفة ثم همست: لا أحتمل أن تريني ضعيفة يا هدى لكنكِ قد تساعديننى.

بعد لحظة من التردد، فتحت الصندوق وأخرجت صورة قديمة، نظرت إلى ابنتها بعينيها المغمورتين بالخوف، وقالت بصوت متقطع:

أريدك أن تبحثي عن هذا الرجل، لا تخبري أحدًا بما سأقوله لكِ.

أعطتها ورقة مطوية، فتحتها هدى ببطء لتقرأ، وكأن كل كلمة تنزف غموضًا: مصطفى عبد الحميد الشاذلي.

الدليل العشرون

"ســابــق الـزمـــن"

أوشك الصباح أن يشق خيوط ليله الطويل، صدمت سارة عندما رأت صاحب الظل وصرخت قائلة: نادية.

انحنت نحوها بسرعة، حاولت اسغافها حتى بدأت تستعيد وعيها، فتحت عينيها وأمسكت رأسها متألمة وقالت: ماذا حدث؟ ما هذا الذي فعلتِه!

ساعدتها سارة أن تجلس، واعتذرت بخجل معللة شعورها بالخوف، فقد كانت تظن أنّه سارق، وبختها نادية التي ما إن استعادت وعيها كاملًا حتى صارت تنكزها عما فعلته بها.

كانت تجمعهما صداقة متينة منذ الصغر، لكنَّ الحظَ حالف نادية بزواجها من رجل أعمال غادرت معه البلاد منذ ما يقارب عشر سنوات، وتأتي من حين لآخر لزيارة أهلها في الإسكندرية.

سألتها سارة عما جاء، وهي تعلم أنه ليس موعد عودتها، وقفت نادية واضعة يدها على خصرها وكما تتباهى دائماً بجسدها وجمالها، راحت تلتقط ملامح الغرفة وما بها من فوضى وأوراق ملقاة على الأرض، انحنت قليلًا لتلتقط إحدى الصور لكن سارة أسرعت وجذبتها من يدها، تصرف جعل

نادية تشعر بالريبة، وقالت بنبرة تحدٍ: الآن يا صديقتي عليكِ أن تخبريني بكل ما يحدث معكِ.

استدارت سارة غير مبالية بسؤالها، راحت تلملم الأوراق والصور، وضعت كل شيء داخل الصندوق، ثمّ حملت المفكرة وخبأتها داخل حقيبتها، اقتربت منها نادية وقالت: -لمَ تتجاهليني؟! ماذا تفعلين هنا؟ ولماذا تلك الفوضى؟

قبضت سارة على ذراعيها ثمّ قالت:- أنتِ أخبريني ماذا جاء بكِ إلى هنا؟

- ألم ترغبي في أن أكون بجانبك.

- ليست تلك الإجابة على سؤالي يا نادية.

تأففت وأجابتها: لقد قرأت الأخبار وعلمت بما حدث معكما، فلم أستطع تركك وحدك في تلك المحنة.

- متى هبطت طائرتك؟

ثم نظرت إلى ساعة يدها وأردفت:- آخر موعد للرحلات القادمة من لندن تنتهي عند الثانية صباحًا، والآن أوشكت الساعة أن تدق السادسة والمسافة بين المطار إلى هنا ساعة ونصف، إذًا هذا الفارق أين كنتِ؟ كما كيف علمتِ بوجودي هنا!

تجعدت ملامحها، وقطبت جبينها وقالت:

- يبدو أنكِ تمزحين، أم هذا استجواب!!

- لا فقط أريد أن أعرف كيف ومتى ولماذا أتيتِ؟

- أنتِ حقًا معتوهة، يبدو ما حدث قد أحدث عطبًا في عقلك، حسنًا سأرحل إذا كان هذا الأمر سيريحك.

ـتوقفي يا نادية...استدارت وعيناها يترقرق داخلهما الدمع، تحاول كبحهما، لكنها لم تستطع الصمود طويلًا، حتى أجهشت، في البكاء وصارت تتمتم: لم أكن أعتقد أنه سيأتي يومًا وتعامليني كغريبة، تركت شركتي وزوجي وأتيت كي أكون جانبك، تهينينني بهذا الشكل!

عانقتها سارة وصارت تربت على ظهرها معتذرة عما بدر منها، ثم تراجعت للخلف قليلًا وقالت: لقد تعرضت لكثير من الضغوط اليوم يا نادية وما اكتشفته جعلني لا أثق حتى في نفسي؛ فلا تغضبي مني.

وقفت بدلال وقالت:- إذاً أخبريني ماذا يحدث معكِ؟

- سأخبرك لكن علينا الرحيل من هنا الآن، يجب أن نغادر.

حينها رن هاتف نادية، نظرت لسارة وقالت:

- سأجيب، ثمّ أعود ونرحل.

خرجت على عجالة، لكن سارة ما عادت تثق فيما تراه بعينيها، سارت خلفها، تلصصت عليها ولم تستطع أن تلتقط سوى كلمة واحدة: سأجلبها لك.

....

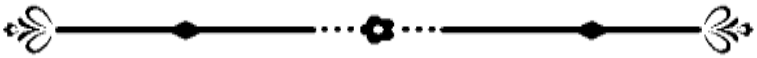

قبل ظهور نادية بساعة

من أمام مطار القاهرة، امتدت يد الزمن تكشف فصلًا جديدًا، سيارة سوداء تنتظر في صمت مترقب، وأزيز الطائرات يخترق الأفق، معلنًا وصول الرحلة القادمة من لندن، بدت الساعة كأنها تقفز بين عقاربها، حتى انفتح باب الوصول.

ظهرت امرأة في ربيعها الثالث، خطواتها واثقة ونظراتها متأنية، كأنها تبحث عن شيء تترقب ظهوره، في لمح البصر، اقترب منها شاب يرتدي بذلة سوداء أنيقة، ناولها هاتفا وهو يقول:

سيدي يرغب في التحدث معكِ.

رفعت الهاتف، وفي نبرة أنثوية حملت بصمات الغربة، قالت:

I miss you.

ثم أغلقت الخط دون أن تترك مجالًا لأي إجابة.

استقلت السيارة التي انطلقت كالسهم، وتوقفت بعد دقائق أمام فندق فاخر يعانق أضواء الليل، تقدمت بثبات إلى منضدة الاستقبال، أخرجت هويتها وسألت:

- لدي حجز باسم نادية عبد القادر

تفحصت الموظفة الأوراق سريعًا، وابتسمت وهي تمد المفتاح:

أتمنى لكِ إقامة سعيدة.

لكن اللحظة لم تدم طويلًا، يد قوية أحاطت خصرها، التفتت لتجد عزيز، عيناه تبتسمان بشوق، قبلة خاطفة أشعلت الحضور، وضحكات امتزجت بلهيب المشاعر.

- اشتقت إليكِ، حبيبتي.

في الغرفة ألقت نادية جسدها على السرير كمن يبحث عن ملاذ من عناء السفر.

- عزيز...

نادته بصوتها الذي يحمل بين طياته ألف معنى، لكنه كان يقف عند النافذة، نظراته غارقة في البحر الممتد أمامه، يستمع لصوت الأمواج وكأنها تعيد سرد ذكريات غرقه.

اقتربت منه، احتضنته من الخلف وهمست في أذنه:

- ما زلت تتذكر الحادث؟

أمسك بيديها، رفعهما وقبلهما بلطف وقال:

- كيف يمكنني أن أنسى؟ يدك كانت طوق النجاة.

تقدمت أمامه، نظرت في عينيه مباشرة وقالت:

- إذًا، لماذا طلبت حضوري؟ ولماذا تخفي الأمر عن زيدان؟

زفر بعمق كأنه يزيح ثقلًا من على صدره وقال:

زيدان يتقن اللعب بالأسرار، لكنه لا يعلم أنني أفهم ألاعيبه، بمجرد وصوله لملف البحث أو معرفته العنصر الجديد، سينقلب ضدي، لهذا وضعني في هذا المنصب، ليستخدمني كواجهة بينما يحيك مؤامراته في الخفاء.

وضعت يديها على كتفيه، وصوتها يقطر دلالا:- وسارة؟

ضحك وهو يجيب:- هل تشعرين بالغيرة؟

ابتسمت بسخرية:- سارة ليست منافستي، أنت من يستحق غيرتي.

انفجر كلاهما بالضحك ثم قالت بجدية:- ما هي خطتك الجديدة؟

رد ببرود:- ما تبحث عنه سارة، أريده قبل أن يصل إلى زيدان.

في منزل سارة

في الغرفة الأخرى، حيث كان الغموض ينقش تفاصيله، أنهت نادية مكالمة أثارت شكوكًا لدى سارة؛ فعادت إلى الغرفة، فتحت الأدراج بعصبية، جمعت الأوراق في سلة، سكبت عليها البنزين، وغرزت عيدان البخور التي بدأت تلتهب ببطء.

خرجت لتواجه نادية التي رمقتها بتساؤل:

- ماذا تفعلين؟

أجابتها سارة بسلاسة:- أبحث عن ماء، هيا، علينا المغادرة.

لم تقتنع نادية، لكنها أدركت أن الوقت ينفد، وأن عليها الخروج، عند الباب، قابلتا إسماعيل، انتزعت منه سارة مفاتيح المنزل، دفعت له مالًا يكفيه لشهور، وأمرته بمغادرة المكان وعدم العودة إلا إذا استدعته.

بينما كانت السيارة تبتعد، كان اللهيب يلتهم الأوراق، والصمت يراقب المشهد كأنه يخفي شيئًا لن ينكشف إلا في الوقت المناسب.

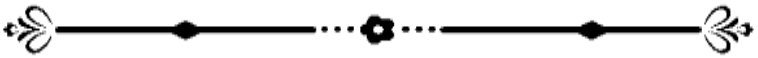

الدليل الواحد والعشرون

سقــوط

في منزل صفية

ما زال الفزع يسكن جدران الغرفة منذ تلك الليلة، الصمت أصبح مفتاحًا يغلق أفواه ماضيها المخيف، مازلت هدى معها تفكر من هذا الرجل الذي تبحث والدتها عنه؟ وماذا تريد منه؟ لكن قطع شرودها صوت جرس الباب، كان حارس المبنى يقف ممسكًا بصندوق خشبي يقول بجدية: هناك من ترك تلك العلبة للسيدة صفية.

استلمتها وهي تجوب بعينيها على ورقة تكشف هوية المرسل، لكنها كانت فارغة من أي شيء ما عدا لاصقة كانت شعار مدرسة والدتها، تيقنت هدى أن هناك سرًا غامضًا عاد من الماضي ليلاحق والدتها؛ فتسللت نحو الغرفة، روحها تنبض بالأحمال الثقيلة لشكوكها، طرقت الباب بخفة ثم دفعها قلقها للدخول دون انتظار.

كانت صفية تجلس أمام المرآة، شاخصة بنظرات زائغة تخترق انعكاسها كمن يبحث عن ذاته في عتمة الذاكرة، في تلك اللحظة، تلبدت سماء عقل هدى بغيوم القلق والخوف، تقدمت بخطوات حذرة، وكأنها تخشى أن توقظ أشباحًا نائمة، ثم همست بصوت متردد:- أمي، هل أنتِ بخير؟

لكنها ظلت أسيرة شرودها، وكأن صوت ابنتها لا يخترق عالمها المحجوب، فجأة وقعت عيناها على الصندوق الذي حملته هدى، وانطفأت نظراتها لتحل محلها ومضة وعي مشوبة بالذعر، أدركت ابنتها حينها أن شيئًا أكبر مما تتخيل يجري، قالت صفية بصوت متحشرج: لا أريد أن أرى نظرة كره في عينيكِ.

اقتربت منها أكثر، قبضت على يد والدتها المرتعشة، وعينيها تتوسلان الحقيقة:- أمي، أنتِ ترعبينني، ما الذي يحدث؟

أشاحت صفية بوجهها بعيدًا، عاجزة عن مواجهة عيني ابنتها المفعمتين بالأسئلة، بيد مرتعشة أشارت لها: اذهبي وأحضري الحقيبة القديمة من الغرفة الأخرى.

نفذت هدى الأمر بلا تردد، بحثت بعجلة بين أغراض قديمة حتى وجدتها، عادت بها إلى غرفة والدتها، ووضعتها أمامها بصمت يقطعه خفق قلبها، كانت تنتظر الإجابة التي طالما تهربت منها والدتها.

مزقت صفية طرف الحقيبة بإصرار مريب، لتخرج منها قطعة قماش مهترئة، عينا هدى تابعتا المشهد بدهشة، وكأنها تشاهد فيلمًا مشوقًا،

من أعماق الحقيبة أخرجت مفتاحًا صغيرًا، وقبل أن تشرح، طلبت من هدى أن تحضر الصندوق.

وضعت هدى الصندوق أمامها، وراحت تراقب بصمت، أزاحت والدتها الورق عنه، ليظهر قفله الحديدي، في تلك اللحظة، انبثقت في عقل هدى

تساؤلات متشابكة كيف عرفت أمها أن الصندوق مغلق؟ كيف تمتلك مفتاحه؟ لكن عينيها لم تفارقا يد صفية التي بدأت تفتح القفل.

وما إن انفتح الصندوق حتى اتكأت صفية بظهرها للخلف، كأن صدمة محتوياته جثمت على صدرها، تجمدت هدى مكانها، تراقب ما يحدث، فيما تجلت أمامها مشاعر مختلطة بين الخوف، الرهبة والفضول، لا تعرف أيها يسيطر.

لعبة النيران والمكر

رافقت سارة نادية في السيارة، يحيط بهما صمت ثقيل يكاد يثقب جدران الوقت، كانتا كمن يرقب قنبلة موقوتة، تعرفان أنها ستنفجر، لكن لا أحد يريد أن يكون أول من يشعل الفتيل، قطعت نادية هذا الصمت وهي تحاول التسلل إلى أعماق سارة: متى كانت آخر مرة رأيتِ فيها مروان؟

تعثرت كلمات سارة في حلقها، لتخرج بصوت بارد كأنها تحاول دفن الحقيقة:- لا أتذكر... حدث ذلك منذ زمن بعيد، حتى أنني فقدت الإحساس بالوقت وسط ما يحدث معي.

حاولت نادية استدراجها مرة أخرى، هذه المرة بحديث عن الفوضى التي شهدتها في المنزل، تلك الكلمات كانت كشرارة ذكرت سارة بخطة الحريق الذي تركته يلتهم بقايا هذا السر الغامض، أدارت دفة الحديث بحذر، تحاول

دفع نادية بعيدًا عن المسار الذي قد يكشف نواياها، لكن الأخيرة بدأ الغضب يتسرب إلى كلماتها، صرخت فجأة: حسنًا، ماذا عن الفلاشة؟

تلك العبارة كانت كالسهم الذي أطلقته بلا وعي، في لحظة صمت خانق، أدركت أنها هي من وقعت في الفخ، ابتسامة خفيفة ارتسمت على وجه سارة، سرعان ما أخفتها تحت قناع الهدوء، وطلبت طلب مفاجئًا: أوقفي السيارة هنا، سأبيت في هذا الفندق الليلة.

رفعت نادية حاجبيها في دهشة: لماذا؟ أليس من الأفضل أن تأتي معي إلى شقتي؟

ردت بنبرة واثقة:- لا، لدي موعد مع شخص يحمل معلومات عن الفتاة التي وجدوها في شقة مروان، هذه فرصتي الوحيدة لمعرفة الحقيقة.

حاولت نادية مجددًا مرافقتها: إذًا سأبقى معكِ، لا يمكنني تركِكِ وحدكِ.

قطعت عليها الطريق بهدوء قائلة:- لا، طلب أن أكون وحدي وإلا لن يخبرني بأي شيء.

شعرت بالتردد، لكنها في النهاية استسلمت وأوقفت السيارة وتركتها تترجل بخطوات ثابتة نحو الفندق، وقبل أن تغادر، صاحت:

سارة، هاتفيني عندما تنتهين.

التفتت برأسها وأجابت ببرود:- سأفعل.

انطلقت نادية بسيارتها، وفي عينيها وميض من السخرية، انفجرت ضاحكة، تردد بصوت عالٍ: كم أنا غبية!

أخرجت هاتفها من الحقيبة وأرسلت رسالة سريعة إلى مجدي:

-لقد كشفتني. انتهى كل شيء.

وفي تلك الأثناء، كان هناك مصيرًا آخر في انتظار نادية لتتلاقى سيارتها بسيارة مواجهة لها اقتربت منها بسرعة مقصودة لتلتحما السيارتان بعناق من لهيب أضاء السماء قبل أن تنيرها الشمس.

جرح في قلب صفية

كان الصندوق الصغير أشبه ببئر غائر، غاصت صفية في أعماقه وكأنها تفتح بابًا إلى ماضٍ ظنته مغلقا إلى الأبد، دمعة انحدرت من عينيها بلا استئذان، سقطت عينيها على صورة قديمة تحتضنها يداها المرتعشتان، نظرت إلى الصورة لثوانٍ طالت وكأن الزمن توقف، ثم ضغطت عليها بين أصابعها، وضمتها إلى صدرها كأنها تحمل طفلًا حرمها القدر من رؤيته.

أمسكت بيد ابنتها كأنها تتمسك بآخر قشة قبل الغرق، رفعت عينيها المثقلتين بالدموع، لتطلق كلمة واحدة كانت كفيلة بقلب عالم هدى رأسًا على عقب: أنا... خائنة.

جمد الصمت المكان، حتى بدت الأرض وكأنها تبتلع كل شيء من تحتهما، هدى وقد خذلتها قدماها، استندت إلى الحائط، بينما عيناها تبحثان عن تفسير، كيف يمكن لوالدتها أن تنطق بتلك الكلمة؟

صفية بدت وكأنها تحمل جبلًا من الندم على كتفيها، تعثرت بخطواتها لتجلس على أقرب كرسي، لم يكن في وسعها مواجهة نظرات ابنتها المملوءة بالصدمة؛ فخفضت رأسها وأطلقت تنهيدة طويلة قبل أن تبدأ الحديث بصوت مكسور:

عندما سافر والدك إلى ألمانيا لإتمام دراسته، كنت فتاة صغيرة، لا أفقه شيئًا في هذه الحياة، أحببت شابًا ملأ حياتي، كان كل شيء بيننا جميلًا حتى سافر حسين، وعدني بأنه سيعود بعد عام لعقد قراننا، لكنه بقي عامًا تلو الآخر، وكل ما بيننا مجرد رسائل تحمل بضع كلمات عن الاشتياق.

تابعت وهي تحاول كبح دموعها:

- خلال تلك السنوات، جاء إلى حياتي عبد الحميد الشاذلي، مسؤول المشروع الذي كنا نعمل عليه في الجامعة، كان مختلفًا.. رجلًا جعلني أشعر بأنني امرأة تُرى وتقدر، خاصة عندما بدأت رسائل حسين تنقطع عني وحين سمعت عن ارتباطه بطبيبة هناك، انهارت كل معاني الوفاء في قلبي.

رفعت رأسها، الدموع تغمر وجهها، وتابعت بصوت يفيض بالألم: هل جربتِ يومًا أن تحترقي بعشق رجل يُلقي بكِ في الظل، بينما آخر يضيء روحك بنظرة واحدة؟

لم تستطع الرد، عيناها توسعتا برعب، قلبها ينبض كطبول حرب، وهي تحاول استيعاب كلمات والدتها التي ترتجفت شفتيها وأغمضت عينيها قبل أن تنهي بوحها: خيانتي لم تكن يومًا قرارًا؛ بل كانت هروبًا من نار تجاهل والدك لي وبركان اشعله عبد الحميد في قلبي.

انهت كلماتها، لكن الصمت الذي أعقبها كان أثقل من أي صوت، كانت هدى تراها لأول مرة كإنسانة مكسورة، غارقة في صراعاتها، امرأة لم تنقذها الظروف ولا الحب الذي كان.

لم تكن لحظة اعتراف بقدر ما كانت انفجارًا في جدار صمت شيدته صفية لسنوات، أرادت هدى أن تمد يدها لتحتضن والدتها، لتمسح عنها أوجاعها وتغمرها بشيء من دفء الطمأنينة، لكن كلماتها التالية كانت كفيلة بتجميد كل شيء: استطاع عبد الحميد إخماد نيراني وملء الفراغ الذي تركه حسين في قلبي.

رفعت رأسها ببطء لتنظر إلى ابنتها، عيناها تفيض بالدموع والخجل: لا أريد أن أرى تلك النظرة في عينيك، المرأة عندما تفقد شغفها بمن تحب، تقتله.

شعرت هدى بأن الهواء أصبح ثقيلًا، وكأن الحقيقة تسحبها إلى هاوية، أكملت صفية حديثها بصوت مثقل بالحزن:

- بدأت أشعر بجفاف داخلي تجاه حسين، كان قلبي كأرض بور، لا حياة فيها ثم جاء عبد الحميد، ليغرس بذرة حبه، واكتشفت أنني حامل.

صعقت، وضعت يدها على فمها تحاول كتم شهقة تملكتها، الخوف والصدمة مزقا كيانها، بينما استرسلت صفية دون أن ترفع عينيها:

- رحل عبد الحميد دون أن يعلم بأمري، بقيت وحدي، خائفة، ضائعة، أخبرت الجميع أن حسين أرسل لي دعوة للسفر إليه في ألمانيا، وسافرت بالفعل، لكنني لم أذهب إليه، لجأت إلى صديقة قديمة، منحتني منزلًا صغيرًا لأختبئ فيه حتى موعد ولادتي.

توقفت للحظة، وكأن الذكريات تثقل كلماتها، ثم أكملت:

- يوم ولادتي، كنت وحيدة، معتقدة أنني لن أراه مجددًا لكن فجأة، ظهر عبد الحميد، شعرتُ للحظة أن الحياة قررت أن تعيد ترتيب أوراقي، لكن ما حدث كان أقسى مما تخيلت.

نظرت إلى هدى مباشرة، عيناها مشحونتان بالندم: قال لي جملة واحدة "تزوجي من حسين" كانت كطلقة أصابت قلبي، صفعته بكل قوتي، صرخت في وجهه، وانهرت أمامه، لكنه بقي صامتًا، وكأن صمته كان تضحية، مال وقبل رأسي، ثم ترك لي حقيبة صغيرة ورحل.

كانت ترتجف من وقع الكلمات، بينما صفية أكملت بصوت أشبه بالهمس:- لم أحاول البحث عنه، ولم يحاول هو العودة، بقيت مع طفلي وحيدة، بحثت عن عمل، لكن الفرص كانت ضئيلة ثم في يومٍ ما، طرق باب منزلي المسؤولون عن المشروع الذي أخبرتك عنه فقد كانوا يعملون في صمت دون معرفة أحد، لم أكن أعرف كيف وجدوني، لكنهم منحوني فرصة العودة، العقبة الوحيدة كانت الطفل، ماذا سأقول للجميع؟

شهقت وكأنها تحاول طرد الذكرى من صدرها:

- تركته عند صديقتي، لم تكن تنجب، وأحبته كأنه ابنها، عدت إلى منزل عائلتي ومعي كذبة جديدة، و عندما عاد حسين، أخبرنا الجميع أننا تزوجنا، كنا نعرف خطايا بعضنا، ومع ذلك قررنا أن نكمل اللعبة.

أكملت بصوت خافت وعيون تائهة:

- عبد الحميد توفي بعد زواجي بعامين، رأيت صورته في جريدة، بدا عجوزًا، كأن الحياة سلبت منه كل شيء، للحظة شككت في أمر موته فهو ليس من هؤلاء الذين يتركون الحياة بتلك السهولة، لا أعلم لماذا لعبت بنا الحياة بهذه الطريقة، لكنها لم تترك لنا سوى رقعة فارغة من اللاعبين، بلا أمل، وبلا انتصار.

لم تجد ما تقوله، بقيت في صمت مهيب، بينما شعرت صفية أن اعترافها لم يكن تطهيرًا؛ بل كان مزيدًا من الوقود لنيرانها المشتعلة منذ سنوات؛ فاستطردت بقولها وهي في أشد شعورها وهنًا: كنت تحملت مسؤولية

مؤسسة كاملة وقد بلغت ذروة مجدها في وقت وجيز، فروعها تنتشر كالنار في الهشيم، لكن خلف هذا الوهج، كانت هناك ظلال ثقيلة تخفي ما لا يُقال.

سارت بتعب السنوات المنحوت على ملامحها نحو الطاولة كأنها تستعيد ذكرى كل خطيئة اقترفتها، فتحت الصندوق بحذر، أخرجت بعض الأوراق، ثم التفتت ببطء لتجد هدى واقفة خلفها، تنظر إليها بعيونٍ ممتلئة بمشاعر من الخذلان والخوف وغربة بدت غائمة بين مقلتيها، رفعت الورق عاليًا وقالت:

- كل شيء هنا، يا هدى... كل شيء، حتى الأسرار التي بنت هذه المؤسسة ونشاطها الحقيقي.

مالت برأسها وكلمات والدتها تزيدها قلقًا قائلة: أي نشاط تقصدين؟

تنهدت صفية، وكأنها تتأهب لخلع قناع آخر ارتدته طويلاً:

هؤلاء ليسوا بشرًا يا ابنتي، إنهم وحوش، هدفهم الوحيد هو الربح، والخسارة بالنسبة لهم غير مقبولة، مهما كان الثمن.

كانت كلماتها حادة، كل حرف منها كطعنة تخترق قلب هدى، وأردفت:- والدك اكتشف هذا متأخرًا، وحاول الهروب من قبضتهم، لكنه فشل، كنا، أنا وهو، مجرد قطع شطرنج في أيديهم، العمليات التي شاركنا فيها لم تكن مجرد صفقات مشبوهة؛ بل كنا جزءًا من عمليات خطف، وزرع أجنة،

وتدريبات تنتهي بالموت أحيانًا، عندما قررنا الانسحاب، كان العقاب أسرع منا.

عينا هدى توسعتا رعبًا، لكنها لم تقاطع، كانت عالقة بين التصديق والهروب من الحقيقة، أكملت صفية بصوت مرتجف:

كنتِ أنتِ وأخوكِ صغيرين، لم يكن لدينا خيار، كان علينا أن نضحي بأحدكما لإنقاذ الآخر.

شهقت هدى، وكأن الهواء اختفى من حولها، حاولت أن تستجمع قواها، لكن كلمات والدتها التالية كانت كفيلة بسحق ما تبقى منها:

فكرت في خيار ثالث، بحثت عن ابني من عبد الحميد، أردت أن أقدمه لهم، لكن القدر أبى أن يمنحني تلك الفرصة، بقيت الخطيئة معلقة حول رقبتي، كالحبل الذي يخنقني كل يوم.

رفعت صفية رأسها بجسارة غريبة، وقالت بجمود:- اخترت أن أضحي بأخيكِ، لأنه كان الخيار الوحيد.

خطت هدى خطوة نحو والدتها، كل ذرة في جسدها ترتجف، الكلمات حُبست خلف شهقات متواصلة، لكنها أخيرًا انفجرت:

- هل تدركين ما تقولينه، أمي؟ تقفين أمامي الآن لتخبري ابنتك أنكما كنتما عصابة تحتالان باسم الفضيلة والشرف؟ ثم تتحدثين بكل برود

عن خيانة جعلتكِ تنجبين طفلًا غير شرعي ألقيتِ به في الشارع، بينما ألقيتِ بالآخر في الجحيم.

صرخت بالكلمات وكأنها سهام تخترق صدر صفية، التي لم تتحمل قوة المواجهة، عيناها تلاشتا في الفراغ، جسدها ارتخى كمن قرر التخلي عن الحياة، سقطت أرضًا، مغشيا عليها، تاركة خلفها صمتا ثقيلًا وهدى التي تراقب السقوط كأنها شاهدة على خراب العالم.

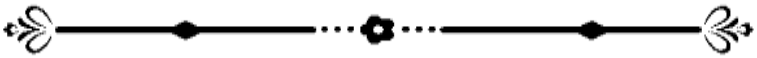

الدليل الثاني والعشرون

لا تنحن للوقت

أطبق الليل بظلامه على الجرائم التي تسربت من بين ظلاله، اندلع سر عزيز الذي دفنه طويلًا، ولو أدرك المصير الذي ينتظره، لما سمح له بأن يطفو، ولم تكن لتعود نادية؛ فيسرقها الموت منه.

كان يسير ذهابًا وإيابًا كالمحاصر بألمٍ ينخر عظامه، هاتفه الذي بات وسيلته الوحيدة للوصول إليها، رن مرارًا دون إجابة، وصوت الرسالة المسجلة ظل يطارده: "هذا الرقم غير متاح حاليا" ألقى الهاتف بغضب واندفع نحو الباب قبل أن يوقفه صوت رنين جديد، التقط الهاتف بلهفة؛ لكنه واجه رقمًا خاصًا، وبينما كان يهم بالإجابة، دوت طرقات حادة على الباب.

فتح على عجل، تجمدت ملامحه عندما رأى زيدان يقف أمامه، بوجه هادئ وعينين تحملان غموضًا غريبًا، تقدم دون دعوة، جلس بثقة أمام التلفاز، التقط جهاز التحكم، وراح يبحث عن شيء ما، وقف عزيز يراقب بحذر، عاجزًا عن النطق، كأن الأسئلة قد غلت إلى صدره خوفًا من الإجابات.

قطع زيدان الصمت بعد لحظات وهو يضغط على زر التشغيل؛ لتظهر على الشاشة لقطات عن حادث انفجار مدمر، المذيع بصوتٍ متهدج يعلن: "وقع

فجر اليوم اصطدام أليم بين سيارتين، أسفر عن انفجار عنيف أودى بحياة كل من فيهما، ولا تزال هوية الضحايا مجهولة"

مدّ عزيز يده ليطفئ التلفاز بعصبية وألقى بجهاز التحكم بعيدًا، اقترب من زيدان وصوته يفيض بالتوتر:- ماذا يحدث؟ لماذا أنت هنا؟ ألم نتفق أن تعود إلى ألمانيا؟

نهض بهدوء، وضع يده على كتف عزيز، وأجاب بصوتٍ بارد:

- قلت لك من قبل... لا تقترب من سارة.

ثم التفت نحو النافذة، ينظر إلى الفراغ الذي غمره الليل، ارتبكت دقات قلب عزيز، تسللت أشباح الخوف إليه، لكنه جاهد ليخفي ارتجافه، وقال بصوتٍ حاول جعله حازما: لا أفهم شيئًا مما تقوله، أنا متعب وكنت أنوي العودة إلى القاهرة.

ابتسم زيدان ابتسامة ساخرة، دون أن يحول نظره عن النافذة، ثم بصوت هادئ كالسهم: هل نسيت وعدك منذ عامين؟ حين أنقذت حياتك؟

تصاعد الغضب داخل عزيز، لكنه كان مشوبًا برعب خفي؛ فقال بصراخٍ لم يخفِ ارتجافه هذه المرة: ماذا تريد؟ لماذا تذكرني بهذا الآن؟ ماذا تخفي؟

لكن زيدان كعادته، لم يجب سوى بابتسامة تحمل في طياتها أسرار أكثر من الكلمات؛ فالتفت له وقال بهدوء قاتل: لقد كسرت الوعد يا عزيز.

تجمدت الكلمات في حلقه، لكنه رفع سلاحه بيدٍ مرتجفة وصوبه نحو زيدان، لم يرتبك الأخير؛ بل تنفس بعمق ورد بصوت هادئ:
السلاح لن يفيدك الآن يا صديقي.

تصدع صوت عزيز تحت وطأة دموعه: أين نادية؟ ماذا فعلت بها؟
اقترب زيدان بخطوتين ثابتتين قبل أن يتوقف قائلاً: أنت من خنت الثقة، أنت من أخطأ.
صرخ عزيز، محاولاً التبرير:- لا! كنت أحمي نفسي وأحميها، أنقذت حياتك ودعمتك، ولم أفعل شيئا يعرضك للخطر، أين هي؟!
أدار زيدان نظره نحو التلفاز وأشار إليه قائلًا ببرود:
- الحوادث تقع يوميًا، علينا تقبل قضاء الله.
انهار على الأرض، أفلت السلاح من يده، ودفن وجهه بين كفيه يغتسل بدموعه، رفع رأسه بصوت مبحوح:
- لماذا يا زيدان؟ أنت تعلم أن حياتي متعلقة بها، كانت شريكتي الحقيقية، كيف استطعت فعل هذا؟
نهض عزيز متحاملًا على جسده، وملامحه تشتعل بالغضب والرغبة في الانتقام، وصاح: لن أسامحك أبدًا، لقد انتهيت كصديق بالنسبة لي، سأجعلك تدفع ثمن ما فعلته بنادية.

ضحك بصوت عالٍ، ثم همس بحدة: وأنت يا من ارتكبت الجرائم في الخفاء، بأي حق تنتقم؟ كم روحًا أزهقت في مستشفاي؟ الذئب الخائن لا يحق له الحديث عن العدالة.

تحرك نحو الباب ببطء ثم توقف، التفت إلى عزيز قائلًا بنظرة ماكرة:
كُشف أمرك لهم، كان عليّ إخبارك هكذا أسدد الدين.
ظل يحدق فيه بمزيج من الكراهية والعجز، قبل أن يتمتم بسخرية ممزوجة بالحقد: لطالما ارتدى القاتل عباءة القاضي... لكن السكين البارد يقتل صاحبه في النهاية.

....

توجهت سارة إلى محطة القطار، قضت ثلاث ساعات ثقيلة داخل غرفة الانتظار، تراقب عقارب الساعة وهي تلتهم عمرها ببطء مؤلم، كل شيء من حولها بدا رماديًا، وأخيرًا أتى النداء المنتظر: "على السادة الركاب التوجه إلى القطار رقم (75) المتوجه إلى القاهرة"
نهضت بسرعة، تسير دون أن تبالي بمن تصطدم بهم أو بكلماتهم الغاضبة، حتى وصلت إلى عربة القطار، جلست بجانب النافذة، تراقب القضبان والرصيف وكأنها تتأكد من وجودهما، طاردتها صور الماضي كوحش ينهش هدوءها، تساؤلات لا تنتهي تضج في رأسها كيف حدث كل

هذا دون أن تعلم؟ لماذا أخفى الجميع عنها الحقيقة؟ شعرت أنها على حافة الجنون، وقررت أن تنهي كل الألغاز وتحصل على الحقيقة مهما كلفها الأمر.

....

اعتراف أخير لصفية

ركضت هدى نحو والدتها، تتجاهل الألم الذي يمزق جسدها، انحنت بجسد مرتجف، رفعت رأسها عن الأرض، ودموعها التي اعتادت أن تحمل الكره باتت تغسل وجهها بالخوف، حاولت الاتصال بزوجها، ولكن الهاتف ظل صامتًا، ألقت به بعيدًا بغضب، ثم أسرعت لتساعد والدتها.

نثرت الماء على وجهها، حتى بدأت صفية تفتح عينيها بصعوبة، جفونها الثقيلة بالكاد ترتفع، تحدثت هدى بصوت يرتجف:

- أمي، أرجوكِ أفيقي... لا تفعلي هذا بي!

بالكاد تستعيد وعيها، أمسكت بيدي ابنتها بقوة لم تتوقعها، وخرج صوتها هامسا: "لا تتركيني... أرجوكِ"

انهارت هدى بين ذراعيها، احتضنتها بقوة، تهدئها وتطمئنها أنها لن تتركها، دقائق مضت وهي تحاول مساعدتها لتستريح على الفراش، وما أن وضعتها، حتى تمسكت صفية بها مجددًا، عيناها متوسلتان:

لا تذهبي... أريدك أن تسمعيني، هذا الصندوق فيه كل التفاصيل، كل شيء عنهم، لا تسمحي أن يقع في أيديهم.

حدقت في وجهها بذهول، والصدمة تخنق الكلمات في حلقها: من تقصدين؟

أخذت صفية نفسًا ثقيلًا، وأكملت:- ابحثي عن أخيكِ.

صدمتها العبارة؛ فتمتمت بشك:- أخي؟ أي أخ؟

همست وهي ترتجف:

ابني الذي أعاده القدر لي... عاد كالبيدق الذي سيطيح بالملك.

ازداد ارتباكها؛ فاقتربت تسألها:- من يكون؟

ترددت صفية لثوانٍ، قبل أن تنطق اسمًا ثقيلًا كالرصاصة: ابني من عبد الحميد، مروان الشاذلي... الصحفي.

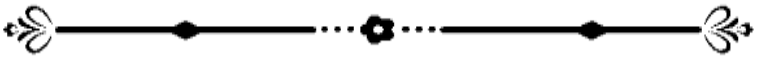

الدليل الثالث والعشرون

"ليس كل ما تراه يكون حقيقة"

سكنت الأفكار قليلًا داخل عقل سارة، أخذت تحلل كل ما حدث، فتحت حقيبتها، أخرجت منها ورقة لشهادة ميلاد، نظرت فيها وما زالت لا تصدق ما تقرأ، إنها شهادة ميلاد مروان، اسم الأم صفية عامر، الأب عبد الحميد الشاذلي، كل الأمور متشابكة، ترى أنهم جميعًا كانوا داخل لعبة وانقسمت، والآن حان وقت تجميعها مرة أخرى.

الكثير من الأمور المعقدة، كلما حاولت لملمة أحدهم تتعثر بآخر، غاصت بأفكارها بعيدًا، وكأنها تستحضر رؤية أحدهم أمامها، أغمضت عينيها لعل الظلام الذي تراه يكون أكثر رحمة مما تفعله الحياة بها، غفت لتتناسى الحقيقة التي تدور داخل عقلها، بعد قليل، استيقظت على صوت عجلات القطار وهي تصدر صوت ارتطامها بالقضبان، فتحت عينيها رأت المكان مظلمًا والنوافذ جميعها مفتوحة على مصراعيها، فجأة بدأ يصدر صوت أشبه بالعواء تحسست المكان منادية "هل يوجد أحد هنا"

لم تصل لها إجابة؛ فالمكان يعج بالصمت.. قامت من مكانها، بدأت تسير بخطى متمهلة لترى ماذا يحدث، صوت طقطقة أتى من خلفها، انتفض جسدها وهي تصيح عاليًا: - من هنا؟

تعثرت وسط الظلال التي كانت تتربص بها، كأن الأرض تحاول إسقاطها في كل خطوة، نظراتها القلقة تلتفت خلفها، الخوف تملكها حين شعرت بنفحات هواء ثقيلة تلفح عنقها؛ فتقوقعت جالسةً، تضغط برأسها بين كفيها، تتوسل للصمت ألا يتركها وحيدة.

قطع السكون صوت هادئ، نادى عليها:- هل أنتِ بخير؟

رفعت عينيها، الضوء عاد يتسلل بخجل، ألتقت عيناها به، إنه هو مروان، زفرت الصعداء، تفحصته بعينين متوسلتين لانتهاء هذا الكابوس وألا يرحل، عانقته بجنون، دموعها تسابق كلماتها المتقطعة: أين كنت؟ كيف تركتني وحدي وسط هذا الرعب؟

لكنه ظل ساكنًا، لا يبادلها حرارة اللقاء، تراجعت بخوف، نظرت في عينيه؛ فوجدت فيهما رماد الموت يتسلل، بياضهما غشيه ظلال رمادية، ارتعد صوتها وهي تهمس:- ما الذي يحدث معك.

بقي صامتًا كتمثال من حجر، اهتز القطار فجأة كأن الأرض تضج من تحتهما، أمسكته بذعر، لكنه بدأ يتحلل بين يديها، جلده يتساقط كحبات رماد، ملامحه تذوب، كتفاه تتقوسان حتى لامس رأسه صدره.

صرخة مخنوقة حبستها داخلها، بينما عقلها يحاول استيعاب الكابوس الحي، ركاب القطار انتبهوا إلى صوتها، هرعوا إليها وهي تصرخ:

"مروان! مروان

أحاطوا بها، صوت واحد اخترق الصخب:- سيدتي، أفيقي!

فتحت عينيها ببطء، تلتقط أنفاسًا مقطوعة، وجوه الركاب تطلعت إليها بريبة، نظراتهم أثقل من الصمت، رفعت رأسها، نظرت إلى النافذة، لم ترَ سوى انعكاس وجهها الشاحب، وعقلها المنهك يهمس لها أن الحقيقة باتت أضغاث أحلام.

من أمام الفندق الذي يقيم فيه عزيز، توقفت سيارة دفع رباعية، ترجل منها أربعة رجال ضخام البنية، وقف اثنان منهم أسفل الفندق، وصعد الآخران متوجهان نحو غرفة عزيز.

تجاهلا موظف الاستقبال الذي ظل يصيح عليهما، فهما يعلمان وجهتهما جيدًا، صعدا إلى الغرفة، طرق أحدهما الباب، فتحت له فتاة ترتدي زي التنظيف، تراجعت إلى الخلف؛ فأمسك بها أحدهما متسائلًا:- أين الرجل الذي يسكن تلك الغرفة؟

بارتجافه ظهرت على ملامحها ونبرة صوتها قالت:

- لقد ترك الفندق منذ قليل.

تركها الرجل ورحل، في حين وقف عزيز يراقبهما من نافذة إحدى الغرف المقابلة، وعندما تأكد من رحيلهما خرج من مخبئه، توجه نحو غرفته مرة أخرى، أخرج حفنة من المال، أعطاها للفتاة نظير خدمتها له، ثم تركها وغادر على عجالة.

توجه نحو المخرج الخلفي للفندق وعندما خرج وجد سيارة سوداء تقف أمامه، فُتح باب السيارة وظهرت عصا تشير له بالدخول، نظر حوله، شعر أنه محاصر، اقترب واستقل السيارة، ثم تحركت مغادرة المكان.

حملت سارة حقيبتها بتوتر، وأثناء سيرها نحو الباب أخرجت هاتفها وكتبت رسالة مقتضبة "يجب أن أراكِ الآن، في المكان القديم" لم تنتظر الرد، استقلت أول سيارة أجرة، وعيناها شاردتان في الفراغ كأنها تبحث عن معنى لما يدور حولها.

مرت خمس عشرة دقيقة بدت وكأنها ساعات، حتى توقفت السيارة عند حديقة قديمة، مهجورة وكئيبة، ترجلت ببطء، نظراتها تمسح تفاصيل المكان الذي خفتت ألوانه وجفت زهور حدائقه، وكأنه انعكاس لما تشعر به، تمتمت لنفسها: "لقد بهت كل شيء، حتى الذكريات" التفتت فجأة على صوت محرك سيارة يقترب، وقفت للحظات، تحدق بالوافدة الجديدة، كانت هدى، بملامح قلقة وحركات مضطربة، كأنها تحمل على عاتقها ثقل ما ستقوله.

تقابلت نظراتهما دون حاجة إلى الكلمات، كلتاهما تعلم سبب اللقاء، وكأن الصمت شاهدًا على ما لم يقال، بدأت هدى الحديث، بصوت خفيض يملؤه الخجل: كيف حالكِ؟ هل وجدتِ مروان؟

ابتسمت بسخرية مُرة، وكأن الإجابة أصبحت عبثً: "العالم كله يبدو كأنه قد أعلن الحرب على مروان، أو ربما عليّ أنا.

تلعثمت هدى، تحاول الوصول إلى ما يختبئ في أعماقها، وقالت بتردد: - هناك شيء عليكِ معرفته.

قاطعتها فجأة، كأنها تعرف ما ستقوله:- أعلم بحقيقة مروان.

توقفت الكلمات في حلق هدى، نظرت إليها بدهشة لم تستطع إخفاءها: - كيف عرفتِ؟

لم تُجب فورًا، جلست على أحد المقاعد الخشبية المتآكلة، وعيناها محملة برثاء لواقعها المتداعي، تحدثت بصوت مكسور

- لم يتبقَ في حياتي شخص أستطيع الوثوق به سوى أنتِ، مروان خدعني، خبأ عني حقيقته، وحقيقة أمي وكل ما يتعلق بعملها.

صمتت هدى للحظة، ثم جلست بجانبها، وكأنها تُشاركها الثقل نفسه، همست:- أمي أخبرتني بكل شيء... كنت أعيش كذبة، تعرفين ما الأصعب؟ أن يكون لديكِ سر تخشين الاعتراف به حتى لنفسك، لكنّها اضطرت للاعتراف أمامي.

التقطت سارة أنفاسها ثم بدأت تروي لهدى جزءًا مما لم تعرفه، الحكاية التي تحمل ألغازا أكثر من الإجابات، استمعت هدى، وعيناها كمن يرى طوفانًا يقترب ولا مهرب منه، وببطء أخرجت من حقيبتها مفكرة صغيرة، كانت تبدو قديمة ومستهلكة، سألتها سارة بلهجة ساخرة تحمل إحباطا: لا... ليس مجددًا.

- ماذا تقصدين؟

- لا شيء، ما هذه المفكرة؟

أجابت وعيناها متوجستان:- إنها لأمي... أعطتني إياها، قالت إنها تحتوي على أسماء الأطفال الذين اختيروا لإجراء تجارب عليهم، لكنها حذرتني من أن تقع في يد أحد، وإن حدث العواقب ستكون وخيمة.

ارتعشت يد سارة وهي تمسك بالمفكرة، وكأنها أمسكت بمفتاح حل كل شيء، كان واضحًا أن ما بين يديها أكثر من مجرد أوراق؛ بل خيط يقودها إلى الحقيقة، شعرت أن النهاية قريبة، وأنّ هذه المفكرة ستكون سلاحها الأخير.

نهضت فجأة، نظرتها تحمل تصميمًا لا يقبل المساومة، وقالت:

- سأذهب إلى المشفى، يجب أن أجد دليلًا على هذه العمليات المشبوهة.

حاولت هدى التملص، تمتمت بكلمات غير مفهومة، لكنها وجدت نفسها مرغمة على الموافقة عندما أمسكت سارة بيدها وأجبرتها على المضي معها قائلة: وجودكِ مهم، فأنتِ زوجة مدير المشفى، لن يستطيعوا رفضنا.

اندفعت الاثنتان نحو المجهول، تتقدمهما المفكرة وكأنها شعلة في ظلامٍ كثيف، وبينهما أسرار ثقيلة تتأهب لتخرج إلى النور، غير عابئة بالعواقب.

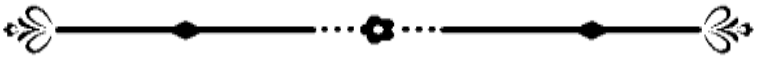

الدليل الرابع والعشرون

ملائكة وشياطين

أتفاق بين خيانتين

وصلت سارة وهدى إلى المشفى، وقد تسلل القلق إلى ملامحهما، كأنهما مقاتلتان تدخلان ساحة معركة مجهولة، ترجلتا من سيارة الأجرة بخطوات مترددة، وأخذتا تلتفتان حولهما بحذر كأن عيونًا تترصدهما من الظلام، جذبت سارة يدها بقوة، وهمست بصوت صارم: لا وقت للشكوك، علينا أن نتحرك الآن.

تراجعت هدى بخطوة وسألتها بحدة، محاولة فهم الخطة المرسومة: ماذا نفعل هنا؟ ألم نتفق أن نبحث عن خيط يربط بين تلك التجارب المشبوهة وبين المصير الذي لاقاه الضحايا؟

ابتسمت بأسى وقالت: لن نستطيع الدخول سويًا، هذا سيُثير الانتباه، عليك أن تفعليها وحدك.

تجمدت ملامح هدى، وارتجف صوتها وهي تقول: وحدي؟! هل جننتِ؟ كيف تريدين مني التجسس على زوجي؟

ضحكت بمرارة ساخرة: أحقًا هذا ما يقلقك الآن؟ إذا كنتِ تظنين أن المواجهة معه ستكون الحل، فماذا ستقولين له؟ الحقيقة؟! هل ستعترفين له بما فعلته والدتكِ، وبالشكوك التي تملأ رأسكِ؟

صمتت هدى للحظة، الكلمات تخترقها كسهام لا تقبل الخطأ، الحقيقة ثقيلة، ثقيلة لدرجة أنها لا تستطيع النطق بها حتى أمام نفسها.

تنهدت أخيرًا وقالت، وكأنها تستسلم للقدر الذي فرض عليها: حسنًا، سأفعل، لكن فقط لأنني بحاجة إلى الحقيقة، حتى وإن كانت ستهدم حياتي.

ضغطت سارة على يدها مطمئنةً، ثم بدأت ترسم الخطة.

اتفقتا أن تدخل هدى من الباب الأمامي كزوجة تبحث عن زوجها والذي هو مدير المشفى، بينما تتسلل سارة من الباب الخلفي دون أن يراها أحد.

وقفت تراقب تحركات هدى، حتى اطمأنت أنها دخلت بسلام، تسللت من الباب الخلفي بخطوات خفيفة، كأنها ظلال لا تريد أن تُرى، كان المكان أشبه بمتاهة باردة، خالية من الحياة، لأول مرة تُوضع في مثل هذا الموقف، المكان الذي كان يستقبلها بحفاوة الآن هي تتسلل إليه كلصة تخشى القبض عليها.

وصلت إلى غرفة صغيرة مخصصة للممرضات، اختبأت فيها لتستعيد أنفاسها.

ارتدت زي عاملات النظافة، كأنها تُبدل هويتها لتندمج في هذا العالم المزيف، شعرت بدموع ساخنة تتجمع في عينيها، لكنها قاومتها، تعايشت مع الصمت لسنوات طويلة، والآن عليها أن تتقن فنون الخداع.

تقدمت في الممرات بخطوات ثابتة، كأنها جزء من الجدران، لم ينتبه إليها أحد؛ فالعمال مجرد ظلال لا يُلتفت لهم.

وصلت أخيرًا إلى مكتب حمدي الملحق بغرفة المشرحة، دفعت الباب بحذر ودلفت إلى الداخل، وفي تلك الأثناء كانت هدى تبحث عنها في أرجاء المكان، مناديةً بصوت خافت: سارة! أين أنتِ؟

خرجت لها من الظلال لتقابلها بنظرة غاضبة وهمست: هل فقدتِ عقلكِ؟ كان يمكن لأحدهم أن يسمعكِ!

تراجعت مرتبكة، تضع يدها على قلبها محاولة تهدئة نبضه المتسارع، لكن عيناها لم تستطع تجاهل الأرضية التي كانت تحمل علامة حمراء باهتة.

سألت بخوف: ما هذه العلامة؟

تجمدت سارة للحظة، ثم حاولت تغيير الموضوع بسرعة: لا شيء، ربما مجرد حادث قديم، علينا التركيز الآن.

لكنها لم تستطع تجاهل الشعور القاتم الذي تسلل إلى قلبها، كانت الغرفة باردة، كأنها تحمل أسرارًا ثقيلة، راحت سارة تبحث في الأدراج، بينما وقفت هدى في منتصف الغرفة، تتأفف وتضرب الأرض بحذائها بتوتر.: ماذا بكِ؟

سألتها سارة دون أن ترفع عينيها عن بحثها؛ فردت بنبرة مختنقة:

لماذا يحدث هذا لي؟ كيف أكتشف أن المرأة التي اعتبرتها قدوة قتلت أخي بدم بارد؟ كيف يمكنها أن تكون بهذه القسوة؟ لا أستطيع كرهها، لكني لا أستطيع مسامحتها.

توقفت سارة عن البحث للحظة، ونظرت إليها بعينين تحملان حزنًا مشتركًا، لم يكن لديهما الوقت للانهيار، الحقيقة تنتظرهما، والوجع جزء من الطريق إليها.

همست سارة وهي تضع يدها على كتف هدى: يجب أن نستكمل بحثنا، الحقيقة لن تنتظر ضعفنا.

عانقتها عناق يختصر كل شيء، الألم، الغدر، والانكسار، نظرة سارة حملت بعض من الخبث، نظرة لم تعتادها من قبل، لكنها أضطرت لفعلها كي تجعل الجميع يلقون الانظار نحو هدى حين يكتشفون اخفاء ما تريد أخذه.

ابتعدتا قليلًا وبينما كانت الأخرى تلتقط أنفاسها، وقعت عيناها على جهاز كمبيوتر ملقى على أحد الأرفف، علقت بسخرية مشوبة بالتوتر:

هل أصبحتم تخزنون الحواسيب على الأرفف الآن؟

توقفت سارة، تجمدت في مكانها، وهي تتفحص الجهاز بعينين تحملان ظلال الشك، تمتمت وكأنها تحدث نفسها:

هذا الجهاز... لم يكن هنا من قبل، كان حمدي يحتفظ به دائمًا في غرفته؛ بل يمنع أي شخص من لمسه، كيف انتهى به الأمر هنا؟

دون أن تنتظر الإجابة، حملت الجهاز بعناية، كأنه يحمل أسرار الكون، ووضعته على الطاولة، حاولت تشغيله، لكن الشاشة طالبتها برقم سري، زفرت بغضب مكتوم: دائمًا تلك الأرقام اللعينة!

قبل أن تتمكن من التفكير أكثر، دوى صوت في الخارج، دفعت سارة الجهاز جانبًا بسرعة، وأشارت لهدى لتختبئ معها في الغرفة الملحقة بالمكتب، من خلف الباب الموارب، تسلل إليهما صوت إحدى الممرضات، تتحدث على الهاتف بصوت مضطرب:

لا أحد يريد البقاء هنا بعد الآن، حتى الأطباء الجدد يطالبون بنقل المشرحة إلى القسم الثاني!

تبادلت سارة وهدى نظرات القلق، كانت الكلمات تحمل بين طياتها شيئًا غامضًا ومقلقًا، لكن الفضول غلب الخوف، اقتربت سارة أكثر من الباب، تحاول التقاط المزيد من الحديث، حتى جاءتها شهقة مفاجئة من الممرضة، التي صاحت بصوت عالٍ: من أحضر هذا الجهاز إلى هنا؟

تصلبت سارة في مكانها، وبدأت الأفكار تتوالى في ذهنها، تذكرت حديثًا سابقًا مع حمدي، عندما أخبرها بابتسامة خجولة أنه لا ينسى تاريخ لقائهما الأول أبدًا، تلك التفاصيل الصغيرة قد تكون المفتاح الآن.

خرجت الممرضة مسرعة لتستدعي الأمن، بينما كان عقل سارة يعمل بسرعة البرق، تقدمت نحو الجهاز مرة أخرى، أدخلت تاريخ لقائهما، وابتسمت في انتصار صغير عندما انفتح الجهاز.

بدأت تتصفح الملفات، عيناها تلتهمان الكلمات بسرعة، تبحث عن أي دليل، أي خيط، وجدت ملفات تتعلق بالمشروع الذي كانت تعمل عليه

سابقًا، وبينما كانت تغوص أكثر، ظهر إشعار أعلى الشاشة: "رسالة غير مرسلة".

فتحت الرسالة، وجدت ملفات ثقيلة مرفقة، لكنها لم تُرسل، ودون تردد أدخلت بريدها الإلكتروني وأرسلتها لنفسها.

كانت هدى تراقب الطريق، تشعر بتسارع دقات قلبها مع كل لحظة تمر، فجأة رأت الحارس يقترب بخطوات ثقيلة، اندفعت نحو سارة وهمست بصوت مضطرب: يجب أن نخرج الآن!

أغلقت الجهاز بسرعة، لكن في استعجالها، تركته مفتوحًا، تسللت الاثنتان من الباب الخلفي، بينما كانت خطوات الحارس تتردد خلفهما، لكنهما كانتا بالفعل في الخارج، تختبئان في ظلال الليل.

بينما كان الهواء البارد يصفع وجهيهما، أدركتا أن اللعبة لم تعد مجرد محاولة لفهم الماضي، اللعبة الآن أصبحت معركة ضد الوقت والأعداء الذين يتربصون بهما من كل زاوية.

ملائكة وشياطين

من داخل أروقة نادي الشرطة، حيث تتسلل الهيبة بين الرتب العسكرية العليا، تجمّع القضاة ووكلاء النيابة حول طاولة مثقلة بأحاديث الوطن وأسراره المخبأة، كان صلاح البنا النائب العام متكئًا على كرسيه، ينظر إلى فنجان قهوته وكأن سوادها قد يخبره بما عجز الزمن عن إيضاحه.

تسرب إلى الجو صوت هادئ، مشحون بغرضٍ مبطن، قاطعًا الصمت الثقيل كحد شفرة: ألم يحن الوقت لتُعد ابنك خليفتك، شاب رأسك وحان للجيل الجديد أن يتحمل العبء؟

رفع صلاح عينيه عن القهوة ببطء، ارتسمت على وجهه ابتسامة حملت حكمة السنوات ومرارة الخيبة، وهمس: ابني لا ينتمي إلى هذا العالم، عينه على الأفق البعيد، يطارد حلم الهجرة بين أجنحة الطائرات.

لم تكد الكلمات تخفت حتى ارتج المجلس بدخول العميد كامل، ثقيل الخطى، واثق النظرة، كأن حضوره استعراض للقوة نفسها التي تَشبع بها، جلس برتابة مصطنعة لا تخلو من استعلاء، و قال بصوت مغلف بالمجاملة المزيفة: العالم يتغير يا صلاح، لا مكان لمن يحبس نفسه في الماضي، دع الجيل الجديد يشق طريقه.

بدا وجهه كصخرة لم تنحتها الرياح، وعيناه تومضان بتصميم لا يتزعزع، ردّ بهدوء مغموس باليقين: ليس كل تغيير تقدما، ولا كل علم يقتضي هجرة، الهروب يخلع عنا جذورنا، وبدون الجذور تسقط الشجرة.

تسلل إلى مجلسهم صوت افتقدوه من زمن رمز من رموز السياسة العظام، في إيران حيث جذوره، كان له علاقات وثيقة بين القادة السياسين في مصر، كما أثبت جدارة كانت تُحكى لأجيال.

نظر له كامل نظرة استعلاء مليئة بالتكبر وامتنع عن الانغماس في حديثهما؛ بل وتركهما راحلا دون حديث.

أوقفه صوت عبد العظيم بهيبة وحدة قائلا: هناك شيئًا غريبا رأيته في عينيك يا كامل، هل حدث ما أخشاه.

ضغط كامل على أسنانه بقوة والتفت له ظاهرًا ملامح الغضب وقد اكفهر وجهه حتى تظن أن الليل تلحف به، لكن صلاح قام مسرعًا وحال بينهما ليتحدث كامل بغضب:

إياك أن تظن أنك خارج اللعبة، أنت فقط بيدق لا قيمة له.

أوقفه صلاح معنفًا إياه، وقبل أن يتفاقم الموقف بينهما نهض عبد العظيم من مرقده متكئا على عكازه، واتجه نحو الباب بخطوات مثقلة بالكرامة، حاول صلاح أن يسانده، لكنه همس بكلمات لم يسمعها أحد، خرج تاركًا خلفه صمتًا ثقيلًا.

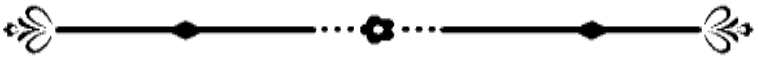

الدليل الخامس والعشرون

"إذا كنت تخشى الغرق، فلا تحاول أن تبلل قدميك"

مواجهة الحقيقة

عادت سارة إلى منزلها بخطوات متثاقلة، وكأن الظلام الذي يحيط بها قد تمدد داخل روحها، أغلقت الباب خلفها، ألقت بمعطفها على الأرض بلا اكتراث، توجهت إلى غرفتها مباشرة، جلست على طرف الفراش، وضغطت يدها على جبينها تحاول تخفيف صداعٍ غريب يعصف رأسها، فجأة، انتبهت لصوت مواء سيزار، رفعت رأسها بسرعة، متناسية ألمها، وحدقت في الظلام، كيف عاد القط إلى المنزل؟ فقد كانت متأكدة أنها تركته عند جارتها!

نهضت بخطوات متوترة، تنادي على القط بصوت منخفض، قلبها يخفق بعنف كأنها تتوقع حدوث شيء مريب، اتجهت نحو المطبخ، وما إن اقتربت حتى لاحظت ظلًا يتحرك خلف الستار، توقفت مكانها، حبست أنفاسها، وعيناها معلقتان بالظلال التي بدأت تتشكل أمامها.

ظهر الرجل أخيرًا، ملامحه واضحة تحت الضوء الخافت، وقامته مشدودة، يتكئ على عصاه التي رفعها قليلًا كأنها إعلان عن حضوره، كان هو الدكتور زيدان،

صرخت سارة بصوت غاضب: كيف تجرؤ على اقتحام منزلي؟ هذا اعتداء! سأبلغ الشرطة فورًا.

ضحك ببرود وهو يضع القط أرضًا بعناية، ثم استقام واقفًا ينظر إليها بنظرة ساخرة وقال: الشرطة؟ هل ستبلغين عن والدك يا دكتورة؟

شعرت وكأن الأرض تميد تحت قدميها، تحدق فيه بعدم تصديق، وكلماته تتردد في عقلها كطعنات حادة، تراجعت خطوة للخلف، كادت أن تسقط، واندفعت تصيح بصوت مرتجف، ممتزج بالغضب والدموع:

والد؟ كيف تجرؤ على قول هذا؟ لقد خنت ثقة أمي... وثقتي أيضاً! كيف استطعت أن تخفي عني الحقيقة طوال هذه السنوات؟

ظل صامتا لثوان، ينظر إليها بعينين غامضتين، ابتسم ابتسامة باردة وقال: يبدو أنكِ لم تصلي بعد إلى كل شيء.

ازدادت حيرة، عيناها المليئتان بالغضب راحتا تحاصره بتساؤلاتها الصامتة، صاحت بمرارة: ماذا تريد؟

تقدم نحوها خطوة واحدة، لكنها ابتعدت، تحفظت في مكانها كأن الهواء الذي بينهما مسموم، توقف ونظر إليها بإصرار وابتسم بخبث قائلًا:

هل قرأتِ مذكرات والدتك؟

قبضت يديها بقوة، وأجابته بصوت مرتجف يحمل كل الغضب المكبوت: لا شأن لك بالمذكرات! لقد هجرتها وهجرتنا، تركتها تواجه كل شيء بمفردها، لا يحق لك أن تطالب بشيء الآن!

هزّ رأسه بأسى مصطنع وقال: يبدو أنكِ لم تقرئيها بعد، لو فعلتِ لفهمتِ أنني كنت أحميها وأحميكِ.

صاحت والغضب يفيض من كلماتها: حماية؟ تسمي كل هذا حماية؟ لقد كشفتُ كل شيء، جرائمك داخل المشفى، الأسرار التي دفنتها، والخطايا التي ارتكبتها باسم العلم! بدلًا من أن تكون منقذًا، كنت قاتلًا، كيف تجرؤ على الحديث عن حماية وأنت من دمر كل شيء؟!

لم يظهر عليه أي تأثر بكلماتها؛ بل اقترب أكثر، وجهه تحول إلى قناع بارد من القسوة، وصاح بصوت أجش: أين المذكرات؟

نبرته هذه المرة، لم تحمل أي تردد، لقد أسقط قناع الهدوء، وظهر وجهه الحقيقي... وجه رجل يريد كل شيء، بأي ثمن.

اللقاء المشؤوم

كانت كتلة من الغضب، تقف أمامه كأنها بركان ينتظر لحظة الانفجار، صاحت بحدة، تشير نحو الباب: اخرج من منزلي الآن! رؤيتك تثير تقززي، لا أريد أن أراك مجددًا!

لم يتحرك، رفع عصاه الحديدية وضرب بها الأرض بقوة، فتردد صوتها كصدى تهديد في أرجاء المكان، تغيرت ملامحه فجأة، كسى وجهه الغضب وهو يقول بسخرية: ما زلتِ تلك المغفلة التي تعرفت عليها، لا تعلمين شيئًا عن الماضي، وما فعلته لأحميكِ! يبدو أن الغباء متوارث بينكِ وبين والدتك، لكنها على الأقل كانت أقل غباء منكِ.

شهقت وكأن كلماته طعنة نافذة، ثم صرخت: لا تتحدث عن أمي هكذا

ضحك ببرود وقال: والدتك، التي ظنت أنها يمكن أن تخبئ عني أسرارها، كنت أراقبها حتى في أنفاسها الأخيرة.

تراجعت سارة خطوة إلى الخلف، وعيناها تلمعان بالدهشة والغضب:

أي نوع من الوحوش أنت؟ كيف خدعتها بهذا الوجه المزيف؟ لا أصدق أنك قد تكون والدي!

صرخ بحدة: أنا لست والدك، ولا يهمني من يكون! الآن، أخبريني أين المذكرات؟

ضحكت بمرارة، ثم بدأت تصفق بسخرية قائلة:

ولماذا لست متفاجئة مما أسمع؟! لقد خنت أمي، والآن تكرر فعلتك معي، لكن لا تقلق... أحرقت كل شيء!

اتسعت عيناه غضبًا، وصاح:

ماذا؟ أحرقتيها؟ أيتها الحمقاء! كل أسرار الماضي كانت هناك، كيف تجرئين؟

تقدمت نحوه خطوة وقالت:

فعلت ذلك انتقامًا لأمي... وانتقامًا لمروان الذي أعلم أنك السبب وراء اختفائه، وربما قتله!

ابتسم وقال بسخرية:

مروان؟ كنتِ دائمًا ساذجة، وعندما تكتشفين الحقيقة، ستدركين مدى غبائك.

- لا تحاول تشويه ذكراه! أعلم أنه كشف أسراركم، وتحدث عن تجاربكم البشعة، وتلك المخلوقات الرمادية التي صنعتوها.

جلس بهدوء على أحد الكراسي، وكأن حديثها لا يعنيه، وقال بنبرة خافتة:

يبدو أنكِ عرفتِ أكثر مما توقعت، لكن السؤال، ماذا بقي لكِ لتعرفيه؟

صرخت والغضب يطغى على صوتها:

- عرفت عن عمليات زرع الأجنة، وعن محاولتكم خلق جنس جديد من البشر! كيف جرؤتم على العبث بأجساد الأبرياء، حتى بعد موتهم؟

رفع حاجبيه وكأنه يتحداها، وقال:

- وهل أخبرك أحد عن دور والدتك في كل هذا؟

حدقت به بذهول، وقالت بتردد: والدتي؟... لا شأن لها بكل هذا!

قهقه وقال:- إذًا، كيف أدخلتكِ إلى المركز التدريبي؟ كيف وضعتكِ وسط هذا العالم، وتركتكِ فريسة بين أيديهم؟

هزت رأسها بعنف، وهي تصيح:

- لا! أنت تكذب! أمي لم تكن تعرف شيئًا عن هذه الجرائم، لقد كشف حمدي حقيقتكم، ودفع الثمن بحياته! أنت من حوله إلى مسخ بحقنه بتلك المادة السامة، كيف فعلت ذلك بمن كان بمثابة ابن لك؟

وقف فجأة، ملامحه ازدادت قسوة، وقال ببرود:

نحن لسنا مجرمين يا دكتورة، نحن فقط نحاول إعادة الحياة إلى هؤلاء الذين فقدو متعة الحياة وهم أحياء.

اقترب منها، ونظر إليها بعينين تحملان تهديدًا واضحًا:

لا تدخلي عرين الأسود؛ لأنكِ إذا فعلتِ، لن تجدي مخرجًا.

- لن أتوقف حتى أصل إلى الحقيقة، وسأعرف من هو عزمي مهما كلفني الأمر!

التفت لها، وابتسم ببرود قائلًا: عندما تعرفين... ستتمنين لو بقيتِ جاهلة.

كشف المستور

كان صوته مزيجًا من الحدة والتلاعب وهو يقول بسخرية:

أنتِ لا تعرفين ما يحمله اسم عزمي... إنه بحر مظلم، أعماقه تخفي أسرارًا تتجاوز قدرة مخيلتك على الاستيعاب

حدقت فيه، ثم تمتمت بتحدٍ: تقصد الرماديين؟

تنفس بعمق، وكأنه يحاول لجم غضبه، ثم قال: كانوا مجرد أسطورة نحلم بتحقيقها، أردنا أن نكشف للعالم عن معجزة وجودهم، أن نسيطر عليهم، ونُظهر قوتنا، لكنكِ ما زلتِ تجهلين خطورتهم... وما يمكن أن نستفيده منهم.

صمت قليلًا، كأنه يعيد ترتيب أفكاره، قبل أن يتابع: البداية كانت مع عزمي، حين اكتشف كهوفًا مدفونة في قلب الصحراء خلال رحلة بحثية في أمريكا الشمالية، كنا شبابًا طموحين نسعى للتميز في مجال الأبحاث الطبية، لكنه وجد شيئًا غير عادي... عينة من سائل لزج، كانت مفتاحًا لعالم لم نتخيله.

ضرب الأرض بعصاه بقوة، ثم أضاف بنبرة أثقل: اكتشافه لم يكن مجرد عينة، وجدنا أنفسنا أمام بقايا سفينة فضائية، وعالم غامض من كائنات متقدمة، أجسادهم الرمادية وتركيبهم المشابه للبشر جعلونا نعيد التفكير في كل ما نعرفه، كانوا يسبقوننا بملايين السنين، يمتلكون تكنولوجيا جعلتنا كالألعاب الصدئة أمامهم.

تابع حديثه، وكأنه يسرد قصة مثيرة مليئة بعناصر التشويق: عزمي كان مهووسا بهم، أراد أن يصبح واحدًا منهم، سمح لهم بتحويله، لكن العملية لم تكتمل، وبقي جزء منه متعلقًا بنا، يعيش على بقاياهم، هذا ما أشعل الصراع، كنا نبحث عن عينات للتجارب، لكنهم كانوا أذكى وأقوى.

صمت للحظة، ثم تابع بنبرة خافتة تحمل شيئًا من الفخر:

عزمي اخترق عالمهم كباحث، ووصل إلى ترياق يُبقي من خضع للتجارب على هيئته البشرية، أطلقنا على البحث اسم "الملف 505"، وجعلناه أملًا لعلاج السرطان والأمراض المستعصية، نجحنا، بدأ اسمي ينتشر في الأوساط

العلمية، لكن التجربة الكبرى كانت زراعة عنصر مختلط داخل الأرحام البشرية.

نظر إليها بعينيه الباردتين، وأردف بحدة:

نجحتُ مرة واحدة فقط، لكن عندما حاولنا السيطرة على النتيجة، تدخلت يد خائنة وأفسدت كل شيء، تلك اليد كانت والدتك.

صرخت سارة بغضب: كفى! لا أريد سماع المزيد!

اقترب منها بخطوات هادئة، وقال بنبرة باردة:

هذا هو السر الذي كنتِ تبحثين عنه، الرماديون ليسوا مجرد كائنات غريبة... هم ظاهرة كونية، قذفهم القدر على كوكبنا ليعيدوا تشكيله، تكنولوجيا لا حدود لها، وأفكار تتلاعب بثوابت البشر، وجودهم متشعب، والدول الكبرى تخفيهم، تحميهم... ووالدتك كانت جزءًا من ذلك.

انهارت على الأرض، تغطي وجهها بيديها، وتضرب الأرض بجنون وهي تردد: لماذا؟ لماذا كل هذا؟

رفعت رأسها بعد لحظة، وعيناها تحملان نظرة مشتتة، وسألت بصوت متهدج: لماذا تخبرني بهذا الآن؟

نظر إليها بازدراء، وقال:

لأن دورِكِ انتهى، ولم يعد هناك ما أخشاه منكِ.

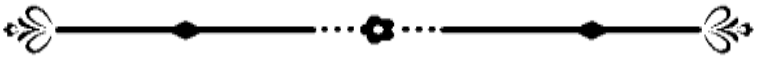

سألته بارتباك: ماذا تعني؟

ابتسم بسخرية، وقال وهو يستدير للمغادرة: ستعلمين قريبًا.

تركها وحيدة في دوامة من الذهول والارتباك، للحظة، تذكرت المفكرة، وإصراره العثور عليها، نهضت بجنون، واتجهت نحو غرفتها، أفرغت محتويات حقيبتها، ومزقت الجيب السري الذي خبأت المفكرة داخله، أمسكت بها وبدأت تقرأ، عيناها تمتلئان بالدهشة مع كل كلمة.

تحت وطأة الحقيقة

في الثامن من شباط، قبل خمس وعشرون عامًا حيث الذكرى الثالثة لتعارفي بزيدان. اليوم اكتملت غرفتك يا صغيرتي، أعلم إنكِ فتاة، هكذا كان زيدان يخبرني.

بعد رحيله أصبح حسين هو مرافقي الوحيد، الصديق الذي وهبتني إياه الحياة كي يُحيطني بحبه وحمايته.

بعد أن تم الاستغناء عني في المستشفى، أصر عزمي على أن يرسل لي كل ما أرغب فيه، كنت أعلم إنني تحت أعينهم، يراقبوني عن كثب، لهذا بقي حسين معي وأبى العودة إلى القاهرة مع أنه كان على موعد مع حبيبته لعقد قرانهما، لكنه تخلى عنها من أجلي.

في إحدى الليالي، وبينما حسين في مناوبته الليلية، طرق الباب رجل غريب، طويل القامة، بلحية كثة وصوت هادئ، يحمل رسالة من زيدان، أصابتني بالخوف والارتباك، أصر الغريب على أن أرحل معه فورًا، زاعمًا أن زيدان خطط لكل شيء، وأن سلامتها تقتضي الطاعة.

كنتُ غارقة في تيه من أمري، لم يكن أمامي سوى الأنصياع له، فقد كان يعلم الكثير من الأمور التي جعلتني أقبل عرضه.

ذهبت معه وفي وسط الطريق أوقفتنا سيارة وترجل منها حسين، هرولت نحوه كطفلة، تستجدي بأبيها، عانقني بقوة، امتصت جزءًا من الخوف الذي بداخلي.

تركني حسين أرحل معهم رغم تمسكي به كقارب نجاة في بحرٍ من الفوضى، أخبرني أنه لا يمكنه البقاء وقال: "سأعود قريبًا يا نهاد، سنرحل إلى القاهرة ومعي أميرتان تنيران حياتي"

قالها ورحل.

عدت إلى السيارة، أخذنا الكثير من الوقت حتى وصلنا لطريق مهجور وهناك استمعت لصوت طائرة هليكوبتر، لم أعلم وجهتي لكن الغريب الذي رافقني أخبرني أنني سأصل صباحًا إلى طهران وعليّ أن أستعد لما هو قادم. وقبل أن يرحل سألته عن اسمه فاستدار قائلًا: "عبد الحميد الشاذلي"

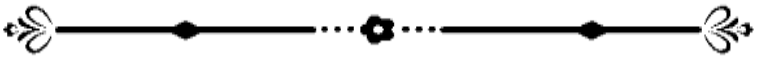

وضعت المفكرة جانبًا، والصدمة تكتسح ملامحها، كانت الكلمات أشبه بصفعات متتالية.

"أنا ابنة من؟ هل يمكن أن يكون حسين؟!"

همست لنفسها وهي تحاول ترتيب أفكارها، شعرت وكأنها تسقط من قمة جبل إلى هاوية لا قاع لها،

خبأت المفكرة مرة أخرى وهي تستعد للرحيل، عقلها يشتعل بأسئلة لا تجد لها إجابة.

رن هاتفها، رقم غريب يظهر على الشاشة، أجابت بتوتر: من معي؟

صوت رجولي هادئ جاءها من الطرف الآخر: سارة مختار؟

- نعم، من أنت؟

- عليّ أن أقابلك فورًا، معي أمانة عليّ أن أسلمك إياها

ارتبكت للحظة، ذكريات حديثها مع زيدان عادت إلى ذهنها، وافقت على لقائه، وأغلقت الهاتف عندما وصلتها الرسالة بالعنوان، وقفت لثوانٍ طويلة، تحدق في الشاشة وكأنها تنتظر شيئًا يمنحها القوة لمواجهة الحقيقة المقبلة.

الدليل السادس والعشرون

"عندما يقودك شغفك إلى حتمية الوصول لنهاية اللعبة"

الجميع يترقب اللحظة الفاصلة، الضربة الأخيرة التي ستقلب الموازين، وصلت اللعبة إلى أوجها، كل الأطراف خسرت بيادقها، سارة لم تعد تخشى شيئًا، قلبها مثقل بالأسئلة وجعبتها فارغة من الثقة، انطلقت حاملة مطرقة من حديد، وكأنها قررت أن تكسر كل الأقفال التي ظلت تحجب عنها الحقيقة.

داخل السيارة، كان الصمت يبتلع المسافات حتى توقفت فجأة وسط الظلام، المكان أشبه بفخ، لا ضوء ولا دليل، فقط عتمة غامضة تلف كل شيء.

قالت إلى السائق بحدة: لماذا توقفت هنا؟!

جاءها صوت غريب، بارد كأنما يخترق عظامها: لأننا تأخرنا كثيرًا عن مواجهة الحقيقة.

تراجعت في مقعدها، عيناها معلقتان بالشخص الذي استدار نحوها، ملامحه نصف غائبة في الظلال.

- من أنت؟ ماذا تريد؟

- أنا من أستطيع أن أعطيك الأجوبة التي تبحثين عنها.

ترجل من السيارة بخطوات هادئة، لكنها كانت كافية لإشعال ألف سؤال في عقلها، لحقت به دون أن تشعر، وكأن قدميها انجرفتا نحو المجهول، وقف الاثنان يحدقان في الظلام وكأنهما يستدعيان شبح الماضي.

أخرج الرجل من جيب معطفه ظرفا كبيرا، تردد للحظة قبل أن يمد لها يده وقال:- سأنتظرك في السيارة بعد أن تنتهي من قرائته

نظرت له بتوجس، لماذا لا يتحدث ويخبرني ولماذا سينتظرني!

لكنه كمن قرأ أفكارها ليُجيبها دون تردد:- تلك كانت الوصية أن أتركك وحدك حين تقرأين خطاب والدتك.

كلماته ضربتها كصاعقة، تقدمت نحوه، قبضت على ذراعه وكأنها تريد انتزاع الحقيقة منه بالقوة:- من أرسلك!

رفع يده ليوقفها، ملامحه جامدة وصوته حازم:- ليس مهما والآن يمكنك إستلام المظروف كما وعدته.

كانت يدها ترتجف وهي تأخذها، كأنها تحمل قنبلة موقوتة، فتحت الرسالة الأولى، لتجد مكتوبًا:

"إلى ابنتي، سارة... ما ستقرئينه سيغير كل شيء"

قبل خمسة عشر يومًا من الولادة، وصلتُ إلى وهران، كانت المدينة غريبة ككل شيء حولي، استقبلني رجل قصير القامة يدعى مختار عبد الوهاب، ملامحه صامتة كسلة الطعام التي وضعها أمامي داخل السيارة. ابتسمتُ له

دون كلمة، وغرقت في صمتٍ طويل كان أثقل من الطريق الممتد نحو المنزل القديم الذي تركني فيه وحيدة.

مرّت الأيام كالكابوس، عشرة أيام دون صوت من عبد الحميد، بينما مختار يزورني كل يومين كظل يراقبني دون أن يمنحني شيئًا من الأمان. وحدتي كانت أشد وطأة بعد أن اكتشفت حقيقة زيدان. الرجل الذي ظننته حب حياتي تآمر عليّ، وزرع داخلي جنينًا لم أطلبه، كأنني أصبحت دمية في أيديهم.

لا أعرف متى أو كيف بدأ هذا الكابوس، بين ليلة وضحاها وجدتُ بطني منتفخًا وروحًا غريبة تنبض داخلي. حاولتُ التخلص منها مرارًا، لكن محاولاتي انتهت بالفشل، الخوف استوطنني؛ الخوف من العالم الذي ينتمون إليه، من الجنين الذي يحمل سرّهم.

صرتُ أخشى النظر في المرآة؛ لم أعد أرى نفسي، بل انعكاسًا لما صنعوه بي، حسين وحده كان يحاول طمأنتي: "ستكون الطفلة بخير، لكنها مميزة لهم، علينا حمايتها مهما كلف الأمر."

لكنني لم أستطع الهروب من هواجسي. بتُّ أراكِ يا صغيرتي، كوحش قادم ليبتلعني، أردتُ الموت قبل أن أراكِ، قبل أن تصبحين جزءًا من عالمهم.

وفي ليلة الخامس عشر من تموز، يوم ولادتك، انهار كل شيء، طرقت الأقدام باب غرفتي، وظهرت وجوه مختار، حسين، وعبد الحميد.

لم أكن أقوى على الحركة، فقط مددتُ يدي أستغيث بهم.
حملني حسين إلى السيارة، وانطلق بها كالمجنون، الطريق بدا لي كأنه يمتد بلا نهاية، والوقت يضغط على أعناقنا كحبل مشدود، عندما وصلنا إلى المشفى، وقف عبد الحميد على عتبة القرار الأصعب، رفض تسجيل اسمي خشية أن يجدوني. كانت حالتي تُرثى لها، جسدي ينهار بين يديه، لكنه أصر على حماية السر.
تحدث مختار وهو يتقدم بخطوات حاسمة، مقترحًا مجازفة أشبه بالمقامرة "سننسبك إلى سهيلة، زوجتي.. لا خيار آخر."
غطى وجهي بـ"يشمك" وألبسني عباءة خشنة، ثم همس بصوت متوتر: "بهذا لن يميزكِ أحد"

قادوني إلى غرفة العمليات، وأنا بين الوعي واللاوعي، بين الخوف والوجع. دخلتُ باسم سهيلة، لكني خرجتُ إلى كابوس جديد.
في اليوم التالي، أفقتُ على ضوضاء في أروقة المشفى، حديث عن اختفاء طفلة حديثة الولادة، ووفاة أم على طاولة العمليات، عدتُ إلى منزل مختار بعد يومين، أحملكِ بين ذراعي كأنكِ سرٌ مدفون في قلبي، خليط من الذنب والخلاص يخنقني. علمتُ حينها أن سهيلة، التي جازف عبد الحميد بحياتها لأجلنا، فارقت الحياة في تلك الليلة، تاركةً وراءها فوضى تلتهم كل من اقترب منها.

"ما حدث كان الخيار الوحيد، لم أكن أعلم بخطتهم كاملة حتى أخبرتي عبد الحميد بما فعلوه تلك الليلة وأنهم حصلوا بالفعل على الطفلة، لكن جاءت التقارير لصالحنا ونجونا من قبضتهم.

شعرت بأنني أحمل جبالًا فوق صدري، أغمضت عيني وكأنني أبحث عن القوة بين الذكريات، وبدأ عبد الحميد يخبرني بما وقع فالساعات الأخيرة

"بعد ولادتي بساعات، بدأت سهيلة تشعر بآلام المخاض مختار كان في حيرة من أمره، وأنا كنت أنهار، كانت كل لحظة تمر كأنها دهر حين أخبره مختارأن يسجل دخولها باسمي بدلًا من اسمها، شعرت أنني أعيش كابوسًا لا ينتهي، فعلنا ذلك، نعم، رغم معرفتنا بالمخاطر. كنت أعلم أن زيدان يبحث عن أي دليل ليصل إليّ.

لكن ما حدث بعدها مزقنا جميعًا، سهيلة لم تتحمل الولادة، وماتت على طاولة العمليات. ووسط هذه الفوضى، اختفت طفلتها، أو هكذا اعتقد الجميع. لقد تم تسجيلها باسمي، ودفنت دون أي وداع يليق بها، وكأنها لم تكن.

كنت أراهم جميعًا يتحركون حولي كأشباح، مختار كان محطمًا، حسين وعبد الحميد يحاولان السيطرة على ما تبقى من الوضع، وأنا بين يديّ طفلة لا أعرف إن كنت أحتضنها حبًا أم ذنبًا.

لكن الحقيقة يا سارة، كانت أكثر بشاعة، طفلتي نجت، لكن على حساب طفلة سهيلة التي أصبحت ابنتي في نظر الجميع.

كنت أجلس في ظلام غرفتي، أنظر للطفلة وأتساءل: هل هي لعنة أم هدية؟ كنت أبكي أحيانًا وأبتسم أحيانًا أخرى، كل شيء كان مختلطًا بداخلي، حبًا وذنبًا وخوفًا من المستقبل.

حينما جاء حسين مرة أخرى ليطمئنني، أخبرني أن الطفلتين في أمان الآن وأن التقارير التي ظهرت كانت لطفلة سهيلة وابنتي تم تهريبها عن أنظارهم وقد تبناها حسين وزوجته صفية كي يبعدان زيدان عنها وأصبحت طفلة سهيلة ابنتي وهي أنتِ يا سارة

مع كل تلك المجازفات التي فعلناها، زيدان كان يراقبنا من بعيد، عيناه كعيني ذئب، يترصدان أي خطأ، ظن الجميع أن الأمر قد انتهى، لكنني كنت أشعر أن الشر لم ينتهِ بعد، كان يقترب يا سارة، يقترب منّا جميعًا"

ترجل الرجل من السيارة، اقترب منها، وقف بثبات وقوة كأنه برمج بهذا وقال:- أعلم أن الحقيقة صادمة لكِ، لكننا تعاهدنا على كتمانها، وعمل حسين على التواصل بين نهاد وابنتها؛ فجعلك تلتحقين بالمؤسسة التعليمية التي تقودها زوجته، واتفقنا ألا تعلم حقيقتك أو حقيقة والدتك، وتعايش الجميع على تلك الكذبة وأصبح بين الجميع أسرار ومع هذا لم نكن نستطيع أن نتبادلها أو نبوح بها.

وكل ما يهم كان أن تبقى الفتاة الحقيقة بعيدة عن أعينهم، حتى ظهر مروان صالح، وبدأ ينقب في الأمر عندما استطاع أحد العناصر الهروب واللجوء إليه، تلك الفتاة التي قتلوها في منزله وتم اتهامه بقتلها، أخذ عبد العظيم نفسًا طويلًا وقال:

دفع الكثيرون ثمن تلك التجربة، الجميع قدموا التضحيات دون تردد؛ فالأمر أكثر خطورة، تلك المنظمات متشعبة بشكل قد يجعلكِ تلتفين حول نفسك مرتين كي تتيقني من أنتِ.

هذا البحث وتلك المعاهدة كسرت حواجز أمن الكثير من البلاد، تشعبوا داخل الأراضي العربية، وصل الأمر لأصحاب النفوس السيئة، أمثال العقيد كامل، استغلوا الأمر وبدأت العملية تتخذ مجرى مختلفًا، تخريب شامل، ودمار أمة بأكملها.

قهقهات عالية أصدرتها سارة بشكل هستيري، كأنها جنت، مال عبد العظيم نحوها أمسك بذراعيها، حملها على الوقوف، سار بها نحو السيارة، جلست داخلها وهي ما زالت تضحك دون وعي، تنظر له بعين زائغة، وابتسامة لم تسقط عن وجهها، شعر بالقلق حيالها، حاول السير بسرعة ليبتعد بها عن المكان، رآها في المرآة تحمل هاتفها، استدار لها متسائلًا: مع من تتحدثين؟

شعر بوشاح يلتف حول رقبته، جذبته سارة بقوة وهي ما زالت تضحك، ترك المقود من بين يديه، واصطدمت السيارة بإحدى الشجيرات، ترجلت وهي تترنح إثر كدمة أصابت رأسها.

ابتعدت عن المكان بعد أن تيقنت أنه فارق الحياة، أوقفت سيارة أخرى استقلتها دون أن تخبره عن وجهتها، التفت لها السائق متسائلًا:

إلى أين سيدتي؟

كتبت له العنوان دون حديث، وصلت إلى المكان الذي تواعدت هي وهدى عليه وجدت هدى في انتظارها، وما إن رأتها حتى أسرعت إليها، أمسكت بها قبل أن تقع متحدثة: سارة، ماذا حدث لكِ؟

كانت الهالات السوداء تسكن أسفل جفونها، عظام وجهها برزت، فجأة عانقها المرض والذبول، فتحت حقيبتها، أخرجت المفكرة والرسائل ثم دستهم داخل حقيبة هدى ومالت نحوها هامسة وكأن هناك من يتنصت عليهما.

أخذت هدى نفسًا عميقًا، استجابت إلى حديث سارة الغامض، حالتها لم تكن مهيأة كي تستجوبها، لوهلة شعرت بالخوف منها، تركتها وغادرت لتفعل ما أمرتها به، الآن كل شيء بين يديها، وضعت سارة آخر حجر في اللعبة، كسرت القواعد، واخترقت جميع الحواجز، كان الجميع محقًا، تلك اللعبة ليس لها فائز، الجميع خاسر لا محالة.

الدليل الأخير

"لكي تعيش هذه الحياة عليك إما أن تكون قاتلًا أو مقتولًا"

وسط مكان مهجور يحوي بيوتًا من الخوص هجرها سكانها، تاركين أعشاش العناكب ترقد في زواياها، توقفت سيارتان أمام بعضهما، ترجل منهما رجلان، وقف كلاهما ممسكين بعصاتين يتكآن عليهما، علا صوت أحدهما: أخيرًا التقينا يا زيدان!

حرك رأسه وهو يبتسم ساخرًا وقال: ما زلت تحتفظ بهيئتك المزرية.

بادله الآخر الابتسامة وهو يضع يده فوق وجهه الذي كان أشبه بقناعٍ يرتديه بشكل أبرز عظام وجهه المنتفخة، وتحدث بغليظة:

لولا إخفاؤك لنتائج العلاج الذي ساعدناك على إيجاده وتصنيعه ما حدث ما تراه الآن، وما كنا نتعايش على فتات ما تركته لنا بعد رحيلك.

- جيد أنك تعلم أن حياتكم كانت بين يدي وما زالت. اقترب منه قليلًا وتحدث: هيا اخلع نظارتك، لا بأس من رؤيتي للفجوة التي تحتل جانبي وجهك.

ضرب الرجل الأرض بعصاه بقوة، بينما ارتفع صوته الحاد: انتبه يا زيدان، لقد انتظرتك طويلًا، الآن حان الوقت لتخبرني أين ابنة نهاد؟ نعلم يقينًا أنها ليست سارة، تلك الفتاة التي كنت تتستر عليها لتضللنا عن الحقيقة!

ابتسم بسخرية وهو ينفث نفسًا عميقًا، ثم رد بصوت واثق: ليس الآن، يا صديقي، أعلم أنكم تراقبون كل خطوة أخطوها منذ رحيلي، لكنني لا أخشاكم، كان عليّ حماية اسم زيدان علوان قبل أن تدفنوه تحت رماد ماضيكم البائس.

تقدم نحوه خطوة غاضبة، ثم أضاف بنبرة ساخطة: ظننت أن خططك المحكمة ستحميك! جعلت مساعدك ينقلب علينا، وأخفيت الأدلة واحدة تلو الأخرى لا ولكن إلى متى ستهرب؟

أجاب ببرود:

عزيز؟ لم يكن أكثر من أداة استُهلكت، الآن، لم يعد له مكان، سارة كشفت السر، وهي تعلم جيدًا من أنتم، أما عن الماضي، فلم يبقَ منه سوى بقايا ورق بجوزة سارة والإجابة التي تبحث عنها ستأتي من هناك.

خطا الآخر خطوتين إضافيتين، توقف ثم قال بتهكم: لقد أصبحت قاتلة في وقت قياسي! توقعت ذلك منها، خاصة بعد أن أرسلت لها واحدًا من رجالك.

تقلصت ملامح زيدان، وزاد من حدة صوته: لقد أخطأت ظنونك يا صديقي؛ فأنا لم أرسل لها أحد، يبدو أن هناك من يراقبنا جميعًا ويسبقنا بخطوة.

- هل ستفعل كما فعلت نهاد وتقع في غرام شخص مجهول ينقذها من أيدينا؟

قالها بسخرية أغضبت زيدان بشدة، لكن حرص على ألا يظهر أمامه ذلك، ثم راح يضحك بصوت عالٍ، وسرعان ما أطلق نظرة مليئة بالتهديد وقال: إياك أن تنطق اسم نهاد بتلك الطريقة، تذكر أن كل خيوط لعبتكم ما زالت في عقلي، أنا لا أُهزم أبدًا!

مال الرجل نحوه، همس بسخرية: نهاد كانت أذكى منك، استغلتك، خدعتك، ثم تركتك غارقًا في وهم العشق، حصلت على حياة جديدة بمساعدتك، بينما بقيت أنت عالقا في البداية.

تبدلت ملامح زيدان إلى الغضب الجامح، اقترب من الآخر وقال بنبرة شديدة: لا تنسَ، كل هذا بدأ بسببي، وما زال بإمكاني إنهاؤه كما بدأته، لا تظن أنني فقدت السيطرة؛ فالمتحول الذي صنعته سابقًا قد يتكرر!

ضحك الآخر، وهز رأسه بازدراء: أوه، زيدان، ألا ترى؟ الحقيقة كانت أمامك طوال الوقت، لكنك كنت مشغولًا بمطاردة سراب، ابنتها الحقيقية؟ خبأتها في مركز صفية وحسين، جعلونا حراسًا لها دون أن ندرك ذلك!

انفجر زيدان غضبًا: كذب! راقبتُ كل خطوة لهم في طهران، حسين وزوجته تحت أعيننا منذ البداية، كيف تجرؤ على التشكيك في ذلك؟

اقترب الآخر منه، وضع يده على كتفه، ثم همس: زيدان، كلنا وقعنا في خدعة، ربما حان الوقت لتعيد حساباتك.

استدار زيدان فجأة، مغادرًا بخطوات غاضبة، إلا أن صوت الآخر أوقفه: لا تهرب، اللعبة لم تبدأ بعد وسارة... ستكون الطعم الأول لإغراء الثعبان من جحره.

استدار زيدان ببطء، حدّق في الرجل، ثم ابتسم بخبث: لنرى إذًا، من منا سيُخرج الآخر من الظلال أولًا.

أستقل كل منهما سيارته، ومع هدير المحركات، بدأ فصل جديد من الصراع.

داخل منزل سارة

وصلت إلى شقتها مترنحة، ولجت إلى الغرفة، توقفت فجأة متجمدة مكانها، الفراش غارق بالدماء، جثمان رجل محترق وكأن مادة كاوية أجهزت عليه، شهقت، ارتدت للخلف، يدها تغطي فمها، لمحت هاتفًا غريبًا على الأرض يضيء باسم "زوجتي هدى" أدركت سريعًا أنه هاتف عزيز.

اندفعت خارج الشقة، ركضت إلى الشارع بلا وعي، ولم تلحظ السيارة المسرعة التي صدمتها، جسدها ارتطم بالطريق، ودماؤها امتزجت بالإسفلت.

وفي ذات الوقت تزامن عودة هدى لمنزل والدتها بخطى مثقلة، تساؤلات تعصف بذهنها عن سارة، دخلت المنزل، صوت والدتها وهي تناديها، ذهبت نحو الغرفة، كانت صفية تقف أمام النافذة، نظراتها مثبتة على نقطة بعيدة في الأفق، اقتربت هدى منها، وسألت بحذر: على ماذا تنظرين يا أمي؟

التفتت ببطء، احتضنت نفسها وكأنها تخشى البوح، عيناها المرتعشتان التقتا بعيني هدى، ما جعل الأخيرة تعجز عن الكلام، شعرت هدى برغبة جارفة في احتضانها، لكنها ظلت مشدودة إلى صمتها، مثقلة بأسرارها.

تحدثت صفية بصوت متهدج، دموعها تسابق الكلمات: أريدك منكِ وعدًا، مهما حدث لا تكشفي سرك لأحد، إياكِ أن يعلم أي كائنا بما حدث، ووصيتي الأخيرة، ارحلي من هنا، اتركي كل شيء ولا تعودي.

صمتت هدى، أحست أن أمامها متاهة موحشة، وكل خطوة تقودها إلى ظلال أعمق.

....

في منزل المحقق مصطفى

في غرفة مظلمة، كان مصطفى جالسًا خلف مكتبه، عينيه غارقتان في صفحات مذكرة قديمة، أغلقها ببطء، حاول الوقوف، لكن جسده ارتجف، يسأل نفسه هل ما قرأه حقيقة؟ اسم صفية الذي تكرر في الصفحات أربكه.

أمسك بهاتفه، اتصل بالنائب العام لكن لا إجابة، اتصل بصديقه وأخبره بما حدث وما ورد في المذكرات، قائلًا بصوت مرتعش: سأجلب المذكرة وألتقيك في مكتب النائب العام.

في الطريق انطلق بسيارته، هاتفه رن، رقم مجهول، فأجاب: من؟!

- هل قرأت المذكرات؟
- من تكونين؟
- يبدو أنك لم تقرأ الصحف اليوم، النائب العام... قتل ليلة أمس.

ما أن استمع إلى الخبر حتى صادفته سيارة أخرى، أقتربت منه بسرعة وبشكل مفاجئ وتصادما سويا جتى انحرفت السيارة عن الطريق، وانقلبت مرات قبل أن تستقر أسفل الوادي.

بين الموت والحياة، شعر مصطفى بسكون غريب، صور متقطعة من الماضي عبرت أمام عينيه، خطاب كان قد وجده بين أغراض والده، كان يحمل اسم صفية من هنا أصابه الربكة وهو يقرأ عنها في المذكرات.

اقتربت من السيارة امرأة ترتدي معطفًا طويلًا، سحبته من بين الحطام قبل أن تشتعل السيارة، أخرجت المذكرة من جيبه، وضعتها في حقيبتها ثم ابتعدت، وتركته بين الحياة والموت.....

بعد مرور ثلاثة أشهر

على شاطئ بحر أوروبي، وقف شاب طويل القامة بملامح حادة، يتأمل الأفق من خلف نظارته القاتمة، فتيات أجنبيات يهرولن بملابس رياضية مثيرة، تتناثر ضحكاتهن كالرذاذ المالح، اقتربت منه هدى، لكزته في ذراعه بابتسامة مائلة، التفت نحوها، ابتسم بخفة، ثم خلع نظاراته؛ فبادرت قائلة: مروان، أحقًا لم تجد سوى هذا البلد لتأتي بي إليه؟

رفع كوب العصير الذي كان يحمله، ارتشف منه ببطء، ثم قال بلكنة غريبة:

Astmtχ BUKTk

ضحكت وهي ترفع كوبها لمشاركته النخب، ثم باغتته بسؤال:

هل تعرف عليك أحد؟

وضع الكوب جانبًا، تنهد بعمق قبل أن يقول بنبرة جادة: وصلت إليها قبل أن تُنقل إلى مشفى عزمي، لو تأخرت أكثر، لكان المستحيل ينتظرنا، لم أكن أرغب في رؤيتها على تلك الحالة وأعلم أنها رأتني قبل أن أتركها أمام باب المشفى.

نظرت إليه بشيء من التوتر وسألت: وكيف حالها الآن؟

تغيرت ملامحه، خيم الحزن على وجهه وقال:

تدفع ثمن كل شيء فعلته من أجل حمايتك، تلك الفتاة أظهرت قوة لم نتوقعها، لكنها ستظل حبيسة هذا المكان إلى الأبد، هي البطلة الحقيقية، وليس نحن.

شرد بنظره للحظات، ثم قال بصوت مخنوق: أتمنى أن تسامحني، ما فعلته كان قاسيًا، لكن لم يكن أمامي خيار آخر، كان يجب أن أضع لهم فريسة حتى أستطيع إخراجك.

صمتت قليلًا، ثم رفعت عينيها نحوه وسألته:

متى علمت أنك ابن صفية وعبد الحميد؟

- منذ ثلاث سنوات، وصلني طرد يحتوي على رسالة كتبها أبي إليّ، كانت تحكي كل شيء، ومعها شهادة ميلادي وكل الأوراق اللازمة.
- أنت من أرسل الصندوق إلى أمي؟
- نعم كان عليها أن تعرف أن اللعبة بدأت، في الليلة الأخيرة، علمت أنهم سيغتالونها؛ فحاولت الوصول إلى مصطفى.

ضغط مروان على قبضته يعصر ألمًا دفينا، فلقد خسر كل شيء في سبيل هذه اللعبة القاتلة، لعبة لا ترحم أحدًا.

شردت للحظات، ثم قالت بمرارة: الجميع خاسر يا مروان ومع هذا لم تنته اللعبة بعد.

في المستشفى.

داخل ممر مظلم، قادت ممرضة مريضًا شاحب الوجه ببطء، فوق جبينه خيوط جراحية، وعيناه تبدوان فارغتين، فتحت باب غرفة وأدخلته، ثم توجهت إلى الطبيب الجالس خلف مكتبه وقالت:

دكتور زيدان، هذا المريض أوصى دكتور عزمي بالبدء في علاجه فورًا.

رفع رأسه، قرأ الاسم على الملف بصوت منخفض: "المحقق مصطفى الشاذلي".

ثم ابتسم وقال: أبلغي الدكتور عزمي أن نتائج الحالة ستكون على مكتبه خلال يومين.

انحنت الممرضة برأسها وأجابت: أوامرك دكتور زيدان.

تركت الغرفة، رفع عينيه نحو المريض وألقى نظرة باردة قبل أن يتمتم: كل شيء يسير وفق الخطة.

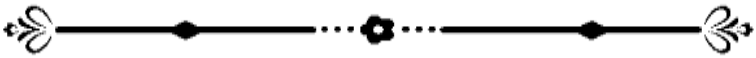

كلمة شكر

إلى صاحب كلمة الحق \ د. محمد وجيه
كل الأمتنان والتقدير لشخصك النبيل على ما بذلته من جهد
في توجيهي وحثي على تقديم الأفضل دائماً

وللأب والموجه أستاذ عادل الأمير
لك محبتي وأحترامي على ما تقدمه لي من آراء
ومعرفة أضافت لي الكثير.

محتويات الرواية

إهداء 5
الدليل الأول 7
"عندما يزأر الموت في وجه الحقيقة" 7
الدليل الثاني 16
"صنـدوق ســري" 16
الدليل الثالث 23
"عودة إلى الماضي" 23
الدليل الرابع 29
"لغز جديد" 29
الدليل الخامس 33
"البـــدايـــة" 33
الدليل السادس 39
"ثـــورة" 39
الدليل السابع 46
"جريمة لم تكتمل" 46
الدليل الثامن 53
"لـقـــاء" 53
الدليل التاسع 59
"اخـتـبـاء" 59

الدليل العاشر 67
"ســـر جديـد" 67
الدليل الحادي عشر 73
"ضــربة قــاضـية" 73
الدليل الثاني عشر 82
"خـــوف" 82
الدليل الثالث عشر 88
"كلما بعدت المسافات زادت الشكوك" 88
الدليل الرابع عشر 92
اعـتـــراف 92
الدليل الخامس عشر 97
مجـهـــول 97
الدليل السادس عشر 102
"إذا أردت مواجهة الأسد، تحمل ألم قضمته" 102
الدليل السابع عشر 110
اللـعبة 110
الدليل الثامن عشر 118
"إذا جثمَ الشيطان داخل عقولنا، لن يبارحها حتى تصبح جنة أفكارنا جحيمًا" 118
الدليل التاسع عشر 126
"التحـول" 126
الدليل العشرون 133
"ســابــق الـزمـــن" 133

الدليل الواحد والعشرون 140
سقــوط 140
الدليل الثاني والعشرون 152
لا تنحنِ للوقت 152
الدليل الثالث والعشرون 158
"ليس كل ما تراه يكون حقيقة" 158
الدليل الرابع والعشرون 164
ملائكة وشياطين 164
الدليل الخامس والعشرون 172
"إذا كنت تخشى الغرق، فلا تحاول أن تبلل
قدميك" 172
الدليل السادس والعشرون 183
"عندما يقودك شغفك إلى حتمية الوصول لنهاية
اللعبة" 183
الدليل الأخير 191
"لكي تعيش هذه الحياة عليك إما أن تكون قاتلًا أو
مقتولًا" 191
محتويات الرواية 201

للتواصل مع الدار

التعاقدات

المعارض

الصفحة الرسمية

مسابقات

طلب إصدارات

الإعداد

التوزيع